(٤٥) سُورَةُ الجَاثِيَةِ مَكِيَّة وَآيَاتُهَا سَبْعٌ وَثَلَاثُونَ

سورة الجاثية من السور المكية التي تناولت أسس العقيدة الإسلامية « التوحيد ، البعث ، الرسالة » والمحورُ الذي تدور عليه السورة الكريمة هو إثبات دلائل القدرة والوحدانية ، وإثبات البعث والجزاء ، يوم يلقى المحسنُ جزاء إحسانه ، والمسيء جزاء إساءته . سميت السورة الكريمة « سورة الجاثية » لأنَّ الله تعالى ذكر فيها أحوال الناس يوم القيامة ، وما يكونون عليه من الفزع ، فيجثون على الركب من شدة ما يصيبهم من الذهول والدهشة ، شأن الخائف الذليل « وترى كلَّ أمةٍ جاثية ، كلُّ أمةٍ تُدعى إلى كتابها ، اليوم تُجزون ما كنتم تعملون » .

● **تبتدىء السورة الكريمة** ببيان دلائل القدرة والوحدانية ، في خلق السموات والأرض ، وفي إحياء البشر ، ونزول المطر ، وتعاقب الليل والنهار ، عبرةً وعظة لأولي الأبصار ، وكل هذه المخلوقات شاهدة بعظمة ذي الجلال ، ناطقةٌ بوحدانية الكبير المتعال ﴿حمۤ. تنزيلُ الكتاب من الله العزيز الحكيم. إنَّ في السمواتِ والأرضِ لآياتٍ للمؤمنين . وفي خلقكم وما يَبُثُّ من دابةٍ آياتٌ لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من رزقٍ فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريفِ الرياحِ آياتٌ لقوم يعقلون﴾ .

● **وتتحدث السورة الكريمة** عن المكابرين المعاندين ، المكذبين لآيات الله مع كل تلك الدلائل الباهرة ، والحجج الساطعة ، الدالة على عظمة

الله وجلاله ، ووحدانيتهِ وكما له ﴿ تلك آياتُ الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديثٍ بعد اللهِ وآياته يؤمنون ؟ ويلٌ لكل أفّاك أثيم . يسمع آياتِ الله تُتْلَى عليه ثم يُصرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها ، فبشّره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هُزُواً ، أولئك لهم عذابٌ مهين﴾ .

● وتنتقل السورة لتذكير الناس بنعم الله الجليلة التي أغدقها عليهم ، لينتبهوا إلى شكر المنعم ، وتوحيد الخالق الذي هيأ لهم كل أسباب الراحة والسعادة فوق ظهر المعمورة ، وعلى سطح البحار ، ينتقلون بمراكبهم فوقها في الأسفار من أجل التجارة وابتغاء الرزق ﴿ اللهُ الذي سخَّر لكم البحرِ لتجريَ الفُلْك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾ .

وتتحدث السورة عن نعمةِ الله على بني إسرائيل ، حيث خصَّهم الله بالفضل العظيم على سائر الأمم ، وأكرمهم بالكتاب المنير ، والهداية الربانية ، فجحدوا النعمة ، وعصوا أو امر الله ، وكذبوا برسالة خاتم المرسلين ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتابَ ، والحُكْم ، والنبوة ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بيناتٍ من الأمر ، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ .

● وتتحدث السورة عن القرآن العظيم ، الهادي إلى الصراط المستقيم ، وعن انقسام الناس أمام هدايته إلى فريقين : مسلمين ومجرمين ، فمن صدَّق به فقد اهتدى ، ومن كذَّب به فقد ضلَّ وغوى ، والجزاء هناك عند الله ﴿ هذا بصائر للناسِ وهدىً ورحمةٌ لقوم يوقنون . أم حسب الذين اجترحوا السيئاتِ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواءٌ محياهم ومماتهم ؟ ساءَ ما يحكمون . وخلق اللهُ السمواتِ والأرضَ

بالحقِ ، ولتُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ . وإذا كان المؤمن يعبد الله وحده ، فإن الكافر إنما يعبد في الحقيقة هواه ، وشتَّان بين من يعبد الله ومن يعبد هواه ﴿ أفرأيتَ من اتخذ إلَهه هواه وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تَذَكَّرون﴾ ؟

● وتتحدث السورة الكريمة عن الدهريين والطبيعيين ، الذين أنكروا وجود الخالق العظيم وأنكروا البعث بعد الموت ، وزعموا أن الدهر هو الذي يُفني العباد ، ولا حشر ولا نشر ، ولا حساب ولا جزاء ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علمٍ إن هم إلا يظنون﴾ ولقد كان من شبهة منكري البعث تلك الحجة الضعيفة السقيمة ، التي تدل على منتهى البلادة والغباء وهي : إذا كان البعث حقاً فلماذا لا يرجع إلينا آباؤنا الأوائل ؟ ولماذا لا يحيون مرةً ثانية في هذه الدنيا فيخبرونا عمَّا حصل لهم ؟ ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيناتٍ ما كان حجَّتَهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قلِ اللهُ يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريبَ فيه ، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ وتعرض السورة الكريمة مشهداً من مشاهد الآخرة ، تلتقي فيه البشرية كلُّها على صعيد واحد ، ليواجهوا الحساب المرهوب ، وقد جثَوْا على الركب متميزين أمةً أمةً ، يغمرهم في ذلك الموقف الهيبةُ والجلال ، وتحيط بهم الملائكة من كل جانب ، وتخْشع الأصوات ، وتُحبس الأنفاس ، في ارتقاب الجزاء الموعود ، وتنقسم الجموع الحاشدة إلى فريقين : فريق المحسنين ، وفريق المجرمين ، وينال الأبرار جزاءهم بالخلود في جنات النعيم ، وينال الفجار جزاءهم بالتقلب في غمرات الجحيم ، ويُقْضى بين الخلائق بالحق والعدل ﴿ ولله مُلْكُ السمواتِ والأرضِ ويوم تقومُ الساعةُ يومئذٍ يخسر المبطلون . وترى

كلَّ أمةٍ جاثية ، كلُّ أمةٍ تُدعى إلى كتابها ، اليومَ تُجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ، ذلك هو الفوز العظيم . وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تُتلى عليكم فاستكبرتمً وكنتم قوماً مجرمين﴾ وتختم السورة الكريمة بحمد الله وتمجيده ، وتعظيمه وتقديسه ، فهو الربُ المعبود ، لا شريك له في ملكه ولا معقِّب لحكمه ، ذو العظمة والجلال ، والكبرياء والكمال في الدنيا والآخرة ﴿فلله الحمدُ ربِّ السموات وربِّ الأرضِ ، ربِّ العالمين . وله الكبرياءُ في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم﴾ .

سورة الجاثية

[٨١٧] ك.. أخرج ابن المنذر وابن جرير عن سعيد بن جبير قال: كانت قريش تعبد الحجر حيناً من الدهر فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الآخر فأنزل الله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (١).

[٨١٨] ك.. وأخرج عن أبي هريرة قال: كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار فأنزل الله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ (٢).

* * *

---

[٨١٧] (١) سورة الجاثية: الآية (٢٣).

[٨١٨] (٢) سورة الجاثية: الآية (٢٤) ـ قلت وروى الواحدي في أسباب النزول ص (٢١٥) من طريق محمد بن زياد اليشكري عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية **﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾** سورة البقرة: الآية (٢٤٥). قال يهودي بالمدينة يقال له فنحاص: احتاج رب محمد فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج في طلبه فجاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: إن ربك يقول **﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾** سورة الجاثية: الآية (١٤).

سورة الجاثية

ثلاثون وسبع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ
۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥
تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن في قوله: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وجوهًا: الأول: أن يكون ﴿حمٓ﴾ مبتدأ و﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبره، وعلى هذا التقدير فلا بد من حذف مضاف، والتقدير تنزيل حم، تنزيل الكتاب، و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ صلة للتنزيل. الثاني: أن يكون قوله ﴿حمٓ﴾ في تقدير: هذه حم، ثم نقول ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ واقع من الله العزيز الحكيم. الثالث: أن يكون ﴿حمٓ﴾ قسمًا و﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ نعتًا له، وجواب القسم ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والتقدير: وحم الذي هو تنزيل الكتاب أن الأمر كذا وكذا.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يجوز جعلهما صفة للكتاب، ويجوز جعلهما صفة لله تعالى، إلا أن هذا الثاني أَوْلى، ويدل عليه وجوه: الأول: أنا إذا جعلناهما صفة لله تعالى كان ذلك حقيقة، وإذا جعلناهما صفة للكتاب كان ذلك مجازًا، والحقيقة أَوْلى من المجاز. الثاني: أن زيادة القرب توجب الرجحان. الثالث: أنا إذا جعلنا العزيز الحكيم صفة لله كان ذلك إشارة إلى الدليل الدال على أن القرآن حق؛ لأن كونه عزيزًا يدل على كونه قادرًا على كل الممكنات وكونه حكيمًا يدل على كونه عالمًا بجميع المعلومات غنيًا عن كل الحاجات، ويحصل لنا من مجموع كونه تعالى عزيزًا حكيمًا كونه قادرًا على جميع الممكنات، عالمًا بجميع المعلومات، غنيًا عن كل الحاجات، وكل ما كان كذلك امتنع منه صدور العبث والباطل، وإذا كان كذلك كان ظهور المعجز دليلاً على الصدق، فثبت أنا إذا جعلنا كونه عزيزًا حكيمًا صفتين لله تعالى يحصل منه هذه الفائدة، وأما إذا جعلناهما صفتين للكتاب لم يحصل منه هذه الفائدة، فكان الأول أَوْلى، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وفيه مباحث:

البحث الأول: أن قوله : ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ﴾ يجوز إجراؤه على ظاهره؛ لأنه حصل في ذوات السموات والأرض أحوال دالة على وجود الله تعالى، مثل مقاديرها وكيفياتها وحركاتها، وأيضًا الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار موجودة في السموات والأرض وهي آيات. ويجوز أن يكون المعنى : إن في خلق السموات والأرض، كما صرّح به في سورة البقرة في قوله : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] وهو يدل على وجود القادر المختار في تفسير قوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١].

البحث الثاني: قد ذكرنا الوجوه الكثيرة في دلالة السموات والأرض على وجود الإله القادر المختار في تفسير قوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] ولا بأس بإعادة بعضها فنقول : إنها تدل على وجود الإله من وجوه : الأول : أنها أجسام لا تخلو عن الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، فهذه الأجسام حادثة، وكل حادث فله مُحْدِث. الثاني : أنها مركبة من الأجزاء وتلك الأجزاء متماثلة؛ لما بينا أن الأجسام متماثلة، وتلك الأجزاء وقع بعضها في العمق دون السطح، وبعضها في السطح دون العمق، فيكون وقوع كل جزء في الموضع الذي وقع فيه من الجائزات، وكل جائز فلا بد له من مرجح ومخصص. الثالث : أن الأفلاك والعناصر مع تماثلها في تمام الماهية الجسمية اختص كل واحد منها بصفة معينة، كالحرارة والبرودة واللطافة والكثافة الفلكية والعنصرية، فيكون ذلك أمرًا جائزًا ولا بد لها من مرجح. الرابع : أن أجرام الكواكب مختلفة في الألوان، مثل كمودة زحل، وبياض المشتري، وحمرة المريخ، والضوء الباهر للشمس، ودرية الزهرة، وصفرة عطارد، ومحو القمر، وأيضًا فبعضها سعيدة، وبعضها نحسة، وبعضها نهاري ذكر، وبعضها ليلي أنثى، وقد بينا أن الأجسام في ذواتها متماثلة، فوجب أن يكون اختلاف الصفات لأجل أن الإله القادر المختار خصص كل واحد منها بصفته المعينة. الخامس : أن كل فلك فإنه مختص بالحركة إلى جهة معينة ومختص بمقدار واحد من السرعة والبطء، وكل ذلك أيضًا من الجائزات، فلا بد من الفاعل المختار. السادس : أن كل فلك مختص بشيء معين، وكل ذلك أيضًا من الجائزات، فلا بد من الفاعل المختار، وتمام الوجوه مذكور في تفسير تلك الآيات.

البحث الثالث: قوله : ﴿لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقتضي كون هذه الآيات مختصة بالمؤمنين، وقالت المعتزلة : إنها آيات للمؤمن والكافر، إلا أنه لما انتفع بها المؤمن دون الكافر أضيف كونها آيات إلى المؤمنين، ونظيره قوله تعالى : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فإنه هدًى لكل الناس كما قال تعالى : ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥] إلا أنه لما انتفع بها المؤمن خاصة لا جرم قيل : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فكذا ههنا، وقال الأصحاب : الدليل والآية هو الذي يترتب على معرفته حصول العلم،

وذلك العلم إنما يحصل بخلق الله تعالى لا بإيجاب ذلك الدليل، والله تعالى إنما خلق ذلك العلم للمؤمن لا للكافر، فكان ذلك آية ودليلاً في حق المؤمن لا في حق الكافر، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾ عطف على الخلق المضاف لا على الضمير المضاف إليه؛ لأن المضاف ضمير متصل مجرور، والعطف عليه مستقبح، فلا يقال: مررت بك وزيد، ولهذا طعنوا في قراءة حمزة (تساءلون به والأرحامِ): بالجر في قوله: (والأرحامِ) وكذلك إن الذين استقبحوا هذا العطف، فلا يقولون مررت بك أنت وزيد.

البحث الثاني: قرأ حمزة والكسائي (آيات) بكسر التاء وكذلك الذي بعده ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ﴾ والباقون بالرفع فيهما، أما الرفع فمن وجهين ذكرهما المبرد والزجاج وأبو علي: أحدهما: العطف على موضع (إنَّ) وما عملت فيه؛ لأن موضعهما رفع بالابتداء فيُحمل الرفع فيه على الموضع، كما تقول: إن زيدًا منطلق وعمر، و﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣] لأن معنى قوله ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾ أن يقول الله بريء من المشركين ورسوله، والوجه الثاني: أن يكون قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ مستأنفًا، ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة أخرى، كما تقول: إن زيدًا منطلق وعمرو كاتب، جعلت قولك: (وعمرو كاتب) كلامًا آخر، كما تقول زيد في الدار وأخرج غدًا إلى بلد كذا، فإنما حَدَّثت بحديثين ووصلت أحدهما بالآخر بالواو، وهذا الوجه هو اختيار أبي الحسن والفراء. وأما وجه القراءة بالنصب فهو بالعطف على قوله: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على معنى: وإن في خلقكم لآيات. ويقولون: هذه القراءة إنها في قراءة أُبي وعبد الله (وإن في خلقكم لآيات) ودخول اللام يدل على أن الكلام محمول على (إنَّ).

البحث الثالث: قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ معناه خلق الإنسان، وقوله: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ﴾ إشارة إلى خلق سائر الحيوانات، ووجه دلالتها على وجود الإله القادر المختار أن الأجسام متساوية، فاختصاص كل واحد من الأعضاء بكونه المعين وصفته المعينة وشكله المعين - لا بد وأن يكون بتخصيص القادر المختار، ويدخل في هذا الباب انتقاله من سن إلى سن آخر ومن حال إلى حال آخر، والاستقصاء في هذا الباب قد تقدم.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهذا الاختلاف يقع على وجوه: أحدها: تبدُّل النهار بالليل وبالضد منه. وثانيها: أنه تارة يزداد طول النهار على طول الليل وتارة بالعكس، وبمقدار ما يزداد في النهار الصيفي يزداد في الليل الشتوي. وثالثها: اختلاف مطالع الشمس في أيام السنة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وهو يدل على القول بالفاعل المختار من وجوه: أحدها: إنشاء السحاب وإنزال المطر منه. وثانيها: تولد النبات من تلك الحبة الواقعة في الأرض. وثالثها: تولد الأنواع المختلفة وهي ساق الشجرة وأغصانها وأوراقها

وثمارها، ثم تلك الثمرة منها ما يكون القشر محيطًا باللب كالجوز واللوز، ومنها ما يكون اللب محيطًا بالقشر كالمشمش والخوخ، ومنها ما يكون خاليًا من القشر كالتين، فتولد أقسام النبات على كثرة أصنافها وتباين أقسامها - يدل على صحة القول بالفاعل المختار الحكيم الرحيم.

ثم قال: ﴿ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ وهي تنقسم إلى أقسام كثيرة بحسب تقسيمات مختلفة، فمنها المشرقية والمغربية والشمالية والجنوبية، ومنها الحارة والباردة، ومنها الرياح النافعة والرياح الضارة، ولما ذكر الله تعالى هذه الأنواع الكثيرة من الدلائل قال: إنها آيات لقوم يعقلون.

واعلم أن الله تعالى جمع هذه الدلائل في سورة البقرة فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] فذكر الله تعالى هذه الأقسام الثمانية من الدلائل، والتفاوت بين الموضعين من وجوه: الأول: أنه تعالى قال في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وقال هاهنا: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والصحيح عند أصحابنا أن الخلق عين المخلوق، وقد ذكر لفظ الخلق في سورة البقرة ولم يذكره في هذه السورة تنبيهًا على أنه لا يتفاوت بين أن يقال السموات وبين أن يقال خلق السموات، فيكون هذا دليلاً على أن الخلق عين المخلوق. الثاني: أنه ذكر هناك ثمانية أنواع من الدلائل وذكر هاهنا ستة أنواع، وأهمل منها الفلك والسحاب، والسبب أن مدار حركة الفلك والسحاب على الرياح المختلفة، فذِكر الرياح الذي هو كالسبب يغني عن ذكرهما، والتفاوت الثالث: أنه جمع الكل وذكر لها مقطعًا واحدًا، وهاهنا رتبها على ثلاثة مقاطع، والغرض التنبيه على أنه لا بد من إفراد كل واحد منها بنظر تام شافٍ. الرابع: أنه تعالى ذكر في هذا الموضع ثلاثة مقاطع: أولها: يؤمنون. وثانيها: يوقنون. وثالثها: يعقلون، وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل: إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم من طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل.

واعلم أن كثيرًا من الفقهاء يقولون: إنه ليس في القرآن العلوم التي يبحث عنها المتكلمون، بل ليس فيه إلا ما يتعلق بالأحكام والفقه. وذلك غفلة عظيمة لأنه ليس في القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الأحكام، وفيه سور كثيرة خصوصًا المكيات ليس فيها إلا ذكر دلائل التوحيد والنبوّة والبعث والقيامة، وكل ذلك من علوم الأصوليين، ومن تأمل عَلِم أنه ليس في يد علماء الأصول إلا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الإجمال.

ثم قال تعالى: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ والمراد من قوله ﴿ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ هو أن صحتها معلومة بالدلائل العقلية، وذلك لأن العلم بأنها حقة صحيحة إما أن يكون مستفادًا من النقل أو العقل، والأول باطل لأن صحة الدلائل النقلية موقوفة على سبق العلم بإثبات الإله العالم القادر الحكيم

وبإثبات النبوّة وكيفية دلالة المعجزات على صحتها، فلو أثبتنا هذه الأصول بالدلائل النقلية لزم الدور وهو باطل، ولما بطل هذا ثبت أن العلم بحقيقة هذه الدلائل لا يمكن تحصيله إلا بمحض العقل، وإذا كان كذلك كان قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ ومن أعظم الدلائل على الترغيب في علم الأصول وتقرير المباحث العقلية.

ثم قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني أن من لم ينتفع بهذه الآيات فلا شيء بعده يجوز أن ينتفع به، وأبطل بهذا قول من يزعم أن التقليد كافٍ وبيّن أنه يجب على المكلف التأمل في دلائل دين الله، وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ قرئ بالياء والتاء، واختار أبو عبيدة الياء لأن قبله غيبة وهو قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ و﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإن قيل: إن في أول الكلام خطابًا وهو قوله: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾ قلنا: الغيبة التي ذكرنا أقرب إلى الحرف المختلف فيه، والأقرب أَوْلى، ووجه قول من قرأ على الخطاب أن (قل) فيه مقدر، أي قل لهم: فبأي حديث بعد ذلك تؤمنون.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن الآيات للكفار، وبيّن أنهم بأي حديث يؤمنون إذا لم يؤمنوا بها مع ظهورها، أتبعه بوعيد عظيم لهم فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الأفاك: الكذب، والأثيم: المبالغ في اقتراف الآثام. واعلم ن هذا الأثيم له مقامان:

المقام الأول: أن يبقى مصرًّا على الإنكار والاستكبار، فقال تعالى: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أي يقيم على كفره إقامة بقوة وشدة ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بالآيات معجبًا بما عنده، قيل: نزلت في النضر بن الحارث وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن والآية عامة في كل من كان موصوفًا بالصفة المذكورة، فإن قالوا: ما معنى (ثم) في قوله: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾؟ قلنا: نظيره قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] ومعناه أنه تعالى لما كان خالقًا للسموات والأرض كان من المستبعد جعل هذه الأصنام مساوية له في العبودية، كذا ههنا سماع آيات الله على قوتها وظهورها من المستبعد أن يقابل بالإنكار والإعراض.

ثم قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ الأصل كأنه لم يسمعها، والضمير ضمير الشأن، ومحل الجملة النصب على الحال، أي يصير مثل غير السامع.

المقام الثاني: أن ينتقل من مقام الإصرار والاستكبار إلى مقام الاستهزاء فقال: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ وكان من حق الكلام أن يقال: اتخذه هزوًا أي اتخذ ذلك الشيء هزوًا إلا أنه تعالى قال: ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾ للإشعار بأن هذا الرجل إذا (أحس بشيء) من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ - خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أولئك إشارة إلى كل أفاك أثيم لشموله جميع الأفاكين، ثم وصف كيفية ذلك العذاب المهين فقال: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي من قدامهم جهنم، قال صاحب (الكشاف): الوراء اسم للجهة التي توارى بها الشخص من خلف أو قدام، ثم بيّن أن ما ملكوه في الدنيا لا ينفعهم فقال: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا﴾. ثم بيّن أن أصنامهم لا تنفعهم فقال: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فإن قالوا: إنه قال قبل هذه الآية: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فما الفائدة في قوله بعده: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قلنا: كون العذاب مهينًا يدل على حصول الإهانة مع العذاب، وكونه عظيمًا يدل على كونه بالغًا إلى أقصى الغايات في كونه ضررًا.

ثم قال: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ أي كامل في كونه هدًى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ والرجز أشد العذاب، بدلالة قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٥٩] وقوله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] وقرىء (أليم) بالجر والرفع، أما الجر فتقديره: لهم عذاب من عذاب أليم، وإذا كان عذابهم من عذاب أليم كان عذابهم أليمًا، ومَن رفع كان المعنى له عذاب أليم. ويكون المراد من الرجز الرجس الذي هو النجاسة، ومعنى النجاسة فيه قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦] وكأن المعنى: لهم عذاب من تجرُّع رجس أو شرب رجس فتكون (مِن) تبيينًا للعذاب.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى ذكر الاستدلال بكيفية جريان الفلك على وجه البحر، وذلك لا يحصل إلا بسبب تسخير ثلاثة أشياء: أحدها: الرياح التي تجري على وفق المراد. ثانيها: خلق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها الفلك. ثالثها: خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء

ولا تغوص فيه. وهذه الأحوال الثلاثة لا يقدر عليها واحد من البشر، فلا بد من موجد قادر عليها وهو الله سبحانه وتعالى، وقوله ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ معناه إما بسبب التجارة، أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان، أو لأجل استخراج اللحم الطري.

ثم قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ والمعنى لولا أن الله تعالى أوقف أجرام السموات والأرض في مقارها وأحيازها لما حصل الانتفاع؛ لأن بتقدير كون الأرض هابطة أو صاعدة لم يحصل الانتفاع بها، وبتقدير كون الأرض من الذهب والفضة أو الحديد لم يحصل الانتفاع، وكل ذلك قد بيناه، فإن قيل: ما معنى ﴿مِّنْهُ﴾ في قوله ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾؟ قلنا: معناه أنها واقعة موقع الحال، والمعنى أنه سخّر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده، يعني أنه تعالى مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه.

قال صاحب (الكشاف): قرأ سلمة بن محارب (منه) على أن يكون (منه) فاعل (سَخَّر) على الإسناد المجازي، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: ذلك منه أو هو منه.

واعلم أنه تعالى لما علَّم عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة، أتبع ذلك بتعليم الأخلاق الفاضلة والأفعال الحميدة بقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ والمراد بالذين لا يرجون أيام الله الكفار، واختلفوا في سبب نزول الآية: قال ابن عباس: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني عمر ﴿يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ يعني عبد الله بن أُبي، وذلك أنهم نزلوا في غزوة بني المصطلق على بئر يقال لها المريسيع، فأرسل عبد الله غلامه ليستقي الماء فأبطأ عليه، فلما أتاه قال له: ما حبسك؟ قال غلام عمر قعد على طرف البئر، فما ترك أحد يستقي حتى ملأ قِرب النبي ﷺ وقِرب أبي بكر وملأ لمولاه. فقال عبد الله: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل: سمِّن كلبك يأكلك. فبلغ قوله عمر فاشتمل بسيفه يريد التوجه إليه، فأنزل الله هذه الآية[١]، وقال مقاتل: شتم رجل من كفار قريش عمر بمكة، فهَمَّ أن يبطش به، فأمَر الله بالعفو والتجاوز، وأنزل هذه الآية.

وروى ميمون بن مهران أن فنحاص اليهودي لما أنزل قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال: احتاج رب محمد. فسمع بذلك عمر فاشتمل على سيفه وخرج في طلبه، فبعث النبي ﷺ في طلبه حتى رده، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: لا يرجون ثواب الله ولا يخافون عقابه ولا يخشون مثل عقاب الأمم الخالية، وذكرنا تفسير أيام الله عند قوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] وأكثر المفسرين يقولون: إنه منسوخ. وإنما قالوا ذلك لأنه يدخل تحت الغفران أن لا يقتلوا، فلما أمر الله بهذه المقاتلة كان نسخًا،

(١) مرسل: رواه الطبري في (تفسيره) (٢٣/ ٤٠٤) من طريق يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة. . . به، وعبد الرزاق في (مصنفه) (٧/ ١٩٦)، حديث رقم (٣١٢٨) من طريق معمر عن قتادة. . . به، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٧/ ٣٢٩)، حديث رقم (١٠٦٢٥) من طريق سعيد عن قتادة. . . به.

والأقرب أن يقال: إنه محمول على ترك المنازعة في المحقرات وعلى التجاوز عما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية والأفعال الموحشة.

ثم قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي لكي يجازي بالمغفرة قومًا يعملون الخير. فإن قيل: ما الفائدة في التنكير في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا﴾ مع أن المراد بهم هم المؤمنون المذكورون في قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾؟ قلنا: التنكير يدل على تعظيم شأنهم، كأنه قيل: ليجزى قومًا وأي قوم!! من شأنهم الصفح عن السيئات والتجاوز عن المؤذيات وتحمل الوحشة وتجرع المكروه.

وقال آخرون: معنى الآية قل للمؤمنين يتجاوزوا عن الكفار؛ ليجزي الله الكفار بما كانوا يكسبون من الإثم، كأنه قيل لهم: لا تكافئوهم أنتم حتى نكافئهم نحن. ثم ذكر الحكم العام فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ وهو مثل ضربه الله للذين يغفرون ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ مثل ضربه للكفار الذين كانوا يُقْدمون على إيذاء الرسول والمؤمنين وعلى ما لا يحل، فبيّن تعالى أن العمل الصالح يعود بالنفع العظيم على فاعله، والعمل الردىء يعود بالضرر على فاعله، وأنه تعالى أمَر بهذا ونهى عن ذلك لحظِّ العبد لا لنفع يرجع إليه، وهذ ترغيب منه في العمل الصالح وزجر عن العمل الباطل.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾

اعلم أنه تعالى بيّن أنه أنعم بنعم كثيرة على بني إسرائيل، مع أنه حصل بينهم الاختلاف على سبيل البغي والحسد، والمقصود أن يبين أن طريقة قومه كطريقة من تقدم.

واعلم أن النعم على قسمين: نعم الدين، ونعم الدنيا، ونعم الدين أفضل من نعم الدنيا؛ فلهذا بدأ الله تعالى بذكر نعم الدين، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ والأقرب أن كل واحد من هذه الثلاثة يجب أن يكون مغايرًا لصاحبه، أما الكتاب فهو التوراة، وأما الحُكْم ففيه وجوة: يجوز أن يكون المراد العلم والحكمة، ويجوز أن يكون المراد العلم

بفصل الحكومات، ويجوز أن يكون المراد معرفة أحكام الله تعالى وهو علم الفقه، وأما النبوة فمعلومة، وأما نعم الدنيا فهي المراد من قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وذلك لأنه تعالى وسع عليهم في الدنيا، فأورثهم أموال قوم فرعون وديارهم ثم أنزل عليهم المن والسلوى، ولما بيّن تعالى أنه أعطاهم من نعم الدين ونعم الدنيا نصيبًا وافرًا، قال: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني أنهم كانوا أكبر درجة وأرفع منقبة ممن سواهم في وقتهم؛ فلهذا المعنى قال المفسرون المراد: وفضلناهم عن عالمي زمانهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ وفيه وجوه: الأول: أنه آتاهم بينات من الأمر، أي أدلة على أمور الدنيا. الثاني: قال ابن عباس: يعني بيّن لهم من أمر النبي ﷺ أنه يهاجر من تهامة إلى يثرب، ويكون أنصاره أهل يثرب. الثالث: المراد ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ﴾ أي معجزات قاهرة على صحة نبوتهم، والمراد معجزات موسى عليه السلام.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ وهذا مفسر في سورة ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ والمقصود من ذكر هذا الكلام التعجب من هذه الحالة؛ لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف، وههنا صار مجيء العلم سببًا لحصول الاختلاف، وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم، ثم ههنا احتمالات يريد أنهم علموا ثم عاندوا، ويجوز أن يريد بالعلم الدلالة التي توصل إلى العلم، والمعنى أنه تعالى وضع الدلائل والبينات التي لو تأملوا فيها لعرفوا الحق، لكنهم على وجه الحسد والعناد اختلفوا وأظهروا النزاع.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ والمرد أنه لا ينبغي أن يغتر المبطل بنعم الدنيا، فإنها وإن ساوت نِعم المُحق أو زادت عليها، فإنه سيرى في الآخرة ما يسوءه، وذلك كالزجر لهم.

ولما بيّن تعالى أنهم أعرضوا عن الحق لأجل البغي والسحد، أمَر رسوله ﷺ بأن يعدل عن تلك الطريقة، وأن يتمسك بالحق، وأن لا يكون له غرض سوى إظهار الحق وتقرير الصدق، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي على طريقة ومنهاج من أمر الدين، فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والبينات، ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال وأديانهم المبنية على الأهواء والجهل، قال الكلبي: إن رؤساء قريش قالوا للنبي ﷺ وهو بمكة: ارجع إلى ملة آبائك فهم كانوا أفضل منك وأسن. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي لو ملت إلى أديانهم الباطلة فصرت مستحقًا للعذاب، فهم لا يقدرون على دفع عذاب الله عنك، ثم بيّن تعالى أن الظالمين يتولى بعضهم بعضًا في الدنيا وفي الآخرة، ولا ولي لهم ينفعهم في إيصال الثواب وإزالة العقاب، وأما المتقون المهتدون، فالله وليهم وناصرهم وهم موالوه، وما أبين الفرق بين الولايتين!! ولما

بيّن الله تعالى هذه البيانات الباقية النافعة، قال: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وقد فسرناه في آخر سورة الأعراف، والمعنى هذا القرآن بصائر للناس جعل ما فيه من البيانات الشافية، والبينات الكافية بمنزلة البصائر في القلوب، كما جعل في سائر الآيات روحًا وحياة، وهو هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن.

ولما بيّن الله تعالى الفرق بين الظالمين وبين المتقين من الوجه الذي تقدم، بيّن الفرق بينهما من وجه آخر، فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: (أم) كلمة وُضعت للاستفهام عن شيء حال كونه معطوفًا على شيء آخر، سواء كان ذلك المعطوف مذكورًا أو مضمرًا، والتقدير ههنا: أفيعلم المشركون هذا، أم يحسبون أنا نتولاهم كما نتولى المتقين؟

البحث الثاني: الاجتراح: الاكتساب، ومنه الجوارح، وفلان جارحة أهله، أي كاسبهم، قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

البحث الثالث: قال الكلبي: نزلت هذه الآية في علي وحمزة وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، وفي ثلاثة من المشركين: عتبة وشيبة والوليد بن عتبة، قالوا للمؤمنين: والله ما أنتم على شيء، ولو كان ما تقولون حقًّا لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما أنّا أفضل حالاً منكم في الدنيا، فأنكر الله عليهم هذا الكلام، وبيّن أنه لا يمكن أن يكون حال المؤمن المطيع مساويًا لحال الكافر العاصي في درجات الثواب، ومنازل السعادات.

واعلم أن لفظ (حسب) يستدعي مفعولين: أحدهما: الضمير المذكور في قوله ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾: والثاني: الكاف في قوله ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والمعنى: أحسب هؤلاء المجترحون أن نجعلهم أمثال الذين آمنوا؟ ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨] وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢] وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦] وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

ثم قال تعالى: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (سواء) بالنصب، والباقون بالرفع، واختيار أبي عبيد النصب، أما وجه القراءة بالرفع، فهو أن قوله: ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مبتدأ والجملة في حكم المفرد في محل النصب على البدل من المفعول الثاني لقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ﴾ وهو الكاف في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ونظيره قوله: ظننت زيدًا أبوه منطلق. وأما وجه القراءة بالنصب فقال صاحب (الكشاف): أجرى سواء مجرى مستويًا، فارتفع محياهم ومماتهم على

الفاعلية وكان مفردًا غير جملة، ومن قرأ (ومماتَهم) بالنصب جعل ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ ظرفين كمقدم الحاج، وخفوق النجم، أي سواء في محياهم وفي مماتهم، قال أبو علي: مَن نصب (سواء) جعل المحيا والممات بدلاً من الضمير المنصوب في نجعلهم فيصير التقدير أن نجعل محياهم ومماتهم سواء. قال: ويجوز أن نجعله حالاً ويكون المفعول الثاني هو الكاف في قوله: ﴿كَالَّذِينَ﴾.

المسألة الثانية: اختلفوا في المراد بقوله: ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾: قال مجاهد عن ابن عباس: يعني أحسبوا أن حياتهم ومماتهم كحياة المؤمنين وموتهم؟ كلا فإنهم يعيشون كافرين ويموتون كافرين، والمؤمنون يعيشون مؤمنين ويموتون مؤمنين، وذلك لأن المؤمن ما دام يكون في الدنيا فإنه يكون وليه هو الله وأنصاره المؤمنون وحجة الله معه، والكافر بالضد منه، كما ذكره في قوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وعند القرب إلى الموت، فإن حال المؤمن ما ذكره في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [النمل: ٣٢] وحال الكافر ما ذكره في قوله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨] وأما في القيامة فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨ - ٤١] فهذا هو الإشارة إلى بيان وقوع التفاوت بين الحالتين. والوجه الثاني في تأويل الآية: أن يكون المعنى إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة، وذلك لأن المؤمن والكافر قد يستوي محياهم في الصحة والرزق والكفاية بل قد يكون الكافر أرجح حالاً من المؤمن، وإنما يظهر الفرق بينهما في الممات. والوجه الثالث في التأويل: أن قوله: (سواء محياهم ومماتهم) مستأنف على معنى أن محيا المسيئين ومماتهم سواء، فكذلك محيا المحسنين ومماتهم، أي كل يموت على حسب ما عاش عليه، ثم إنه تعالى صرح بإنكار تلك التسوية فقال: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٢ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٥ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٦﴾

اعلم أنه تعالى لما أفتى بأن المؤمن لا يساوي الكافر في درجات السعادات، أتبعه بالدلالة

الظاهرة على صحة هذه الفتوى فقال: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ولو لم يوجد البحث لما كان ذلك بالحق بل كان بالباطل؛ لأنه تعالى لما خلق الظالم وسلّطه على المظلوم الضعيف، ثم لا ينتقم للمظلوم من الظالم كان ظالمًا، ولو كان ظالمًا لبطل أنه خلق السموات والأرض بالحق، وتمام تقرير هذه الدلائل مذكور في أول سورة يونس، قال القاضي: هذه الآية تدل على أن في مقدور الله ما لو حصل لكان ظلمًا، وذلك لا يصح إلا على مذهب المجبرة الذين يقولون: لو فعل كل شيء أراده لم يكن ظلمًا. وعلى قول من يقول: إنه لا يوصف بالقدرة على الظلم. وأجاب الأصحاب عنه بأن المراد فعل ما لو فعله غيره لكان ظلمًا. كما أن المراد من الابتلاء والاختبار فعل ما لو فعله غيره لكان ابتلاءً واختبارًا، وقوله تعالى: ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ فيه وجهان: الأول: أنه معطوف على قوله ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فيكون التقدير: وخلق الله السموات والأرض لأجل إظهار الحق ولتجزى كل نفس. الثاني: أن يكون العطف على محذوف، والتقدير: وخلق الله السموات والأرض بالحق ليدل بهما على قدرته ولتجزى كل نفس. والمعنى أن المقصود من خلق هذا العلم إظهار العدل والرحمة، وذلك لا يتم إلا إذا حصل البعث والقيامة وحصل التفاوت في الدرجات والدركات بين المحقين وبين المبطلين، ثم عاد تعالى إلى شرح أحوال الكفار وقبائح طوائفهم فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ يعني تركوا متابعة الهدى وأقبلوا على متابعة الهوى، فكانوا يعبدون الهوى كما يعبد الرجل إلهه، وقرئ (آلهته هواه) كلما مال طبعه إلى شيء اتبعه وذهب خلفه، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد كل وقت واحدًا منها.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يعني على علم بأن جوهر روحه لا يقبل الصلاح، ونظيره في جانب التعظيم قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وتحقيق الكلام فيه أن جواهر الأرواح البشرية مختلفة، فمنها مشرقة نورانية علوية إلهية، ومنها كدرة ظلمانية سفلية عظيمة الميل إلى الشهوات الجسمانية، فهو تعالى يقابل كلًّا منهم بحسب ما يليق بجوهره وماهيته، وهو المراد من قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في حق المردودين، وبقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] في حق المقبولين.

ثم قال: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ هو المذكور في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٦] إلى قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] وقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ هو المراد من قوله ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] وكل ذلك قد مرّ تفسيره في سورة البقرة بالاستقصاء، والتفاوت بين الآيتين أنه في هذه الآية قدّم ذكر السمع على القلب، وفي سورة البقرة قدّم القلب على السمع، والفرق أن الإنسان قد يسمع كلامًا فيقع في قلبه منه أثر، مثل أن جماعة من الكفار كانوا يلقون إلى الناس أن النبي ﷺ شاعر وكاهن وأنه يطلب الملك والرياسة، فالسامعون إذا سمعوا ذلك أبغضوه ونفرت قلوبهم عنه، وأما كفار مكة فهم كانوا يبغضونه بقلوبهم بسبب الحسد الشديد فكانوا يستمعون

إليه، ولو سمعوا كلامه ما فهموا منه شيئًا نافعًا، ففي الصورة الأولى كان الأثر يصعد من البدن إلى جوهر النفس، وفي الصورة الثانية كان الأثر ينزل من جوهر النفس إلى قرار البدن، فلما اختلف القسمان لا جرم أرشد الله تعالى إلى كلا هذين القسمين بهذين الترتيبين اللذين نبهنا عليهما، ولما ذكر الله تعالى هذا الكلام قال: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي من بعد أن أضله الله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أيها الناس.

قال الواحدي: وليس يبقى للقدرية مع هذه الآية عذر ولا حيلة؛ لأن الله تعالى صرّح بمنعه إياهم عن الهدى حين أخبر أنه ختم على سمع هذا الكافر وقلبه وبصره، وأقول: هذه المناظرة قد سبقت بالاستقصاء في أول سورة البقرة.

واعلم أنه تعالى حكى عنهم بعد ذلك شبهتهم في إنكار القيامة وفي إنكار الإله القادر:

أما شبهتهم في إنكار القيامة فهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ فإن قالوا: الحياة مقدمة على الموت في الدنيا فمنكرو القيامة كان يجب أن يقولوا نحيا ونموت، فما السبب في تقديم ذكر الموت على الحياة؟ قلنا: فيه وجوه: الأول: المراد بقوله: ﴿نَمُوتُ﴾ حال كونهم نطفًا في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، وبقوله: ﴿وَنَحْيَا﴾ ما حصل بعد ذلك في الدنيا. الثاني: نموت نحن ونحيا بسبب بقاء أولادنا. الثالث: يموت بعض ويحيا بعض. الرابع: - وهو الذي خطر بالبال عند كتابة هذا الموضع. أنه تعالى قدم ذكر الحياة فقال: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ ثم قال بعده: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يعني أن تلك الحياة منها ما يطرأ عليها الموت وذلك في حق الذين ماتوا، ومنها ما لم يطرأ الموت عليها، وذلك في حق الأحياء الذين لم يموتوا بعد.

وأما شبهتهم في إنكار الإله الفاعل المختار، فهو قولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ يعني تولد الأشخاص إنما كان بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع، وإذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة، وإذا وقعت على وجه آخر حصل الموت، فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك، ولا حاجة في هذا الباب إلى إثبات الفاعل المختار، فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ والمعنى أن قبل النظر ومعرفة الدليل الاحتمالات بأسرها قائمة، فالذي قالوه يحتمل وضده أيضًا يحتمل، وذلك هو أن يكون القول بالبعث والقيامة حقًا، وأن يكون القول بوجود الإله الحكيم حقًّا، فإنهم لم يذكروا شبهة ضعيفة ولا قوية في أن هذا الاحتمال الثاني باطل، ولكنه خطر ببالهم ذلك الاحتمال الأول فجزموا به وأصروا عليه من غير حجة ولا بينة، فثبت أنه ليس علم ولا جزم ولا يقين في صحة القول الذي اختاروه بسبب الظن والحسبان وميل القلب إليه من غير موجب، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بغير حجة وبيّنة قول باطل فاسد، وأن متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (حجتهم) بالنصب والرفع على تقديم خبر (كان) وتأخيره.

المسألة الثانية: سمى قولهم حجة لوجوه: الأول: أنه في زعمهم حجة. الثاني: أن يكون المراد من كان حجتهم هذا فليس لهم ألبتة حجة. كقوله:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

(أَيْ لَيْسَ بَيْنَهُمْ تَحِيَّةٌ لِمُنَافَاةِ الضَّرْبِ لِلتَّحِيَّةِ) الثالث: أنهم ذكروها في معرض الاحتجاج بها.

المسألة الثالثة: أن حجتهم على إنكار البعث أن قالوا: لو صح ذلك فائتوا بآبائنا الذين ماتوا ليشهدوا لنا بصحة البعث.

واعلم أن هذه الشبهة ضعيفة جدًّا؛ لأنه ليس كل ما لا يحصل في الحال وجب أن يكون ممتنع الحصول، فإن حصول كل واحد منا كان معدومًا من الأزل إلى الوقت الذي حصلنا فيه، ولو كان عدم الحصول في وقت معين يدل على امتناع الحصول لكان عدم حصولنا كذلك، وذلك باطل بالاتفاق.

ثم قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فإن قيل: هذا الكلام مذكور لأجل جواب من يقول: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ فهذا القائل كان منكرًا لوجود الإله ولوجود يوم القيامة، فكيف يجوز إبطال كلامه بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ وهل هذا إلا إثبات للشيء بنفسه وهو باطل، قلنا: إنه تعالى ذكر الاستدلال بحدوث الحيوان والإنسان على وجود الفاعل الحكيم في القرآن مرارًا وأطوارًا. فقوله هاهنا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ إشارة إلى تلك الدلائل التي بيّنها وأوضحها مرارًا، وليس المقصود من ذكر هذا الكلام إثبات الإله بقول الإله، بل المقصود منه التنبيه على ما هو الدليل الحق القاطع في نفس الأمر.

ولما ثبت أن الإحياء من الله تعالى، وثبت أن الإعادة مثل الإحياء الأول، وثبت أن القادر على الشيء قادر على مثله، ثبت أنه تعالى قادر على الإعادة، وثبت أن الإعادة ممكنة في نفسها، وثبت أن القادر الحكيم أخبر عن وقت وقوعها فوجب القطع بكونها حقة.

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فهو إشارة إلى ما تقدم ذكره في الآية المتقدمة، وهو أن كونه تعالى عادلاً خالقًا بالحق منزّهًا عن الجور والظلم - يقتضي صحة البعث والقيامة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لكن أكثر الناس لا يعلمون دلالة حدوث الإنسان والحيوان والنبات على وجود الإله القادر الحكيم، ولا يعلمون أيضًا أنه تعالى لما كان قادرًا على الإيجاد ابتداءً وجب أن يكون قادرًا على الإعادة ثانيًا.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما احتج بكونه قادرًا على الإحياء في المرة الأولى، وعلى كونه قادرًا على الإحياء في المرة الثانية في الآيات المتقدمة، عمم الدليل فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لله القدرة على جميع الممكنات، سواء كانت من السموات أو من الأرض، وإذا ثبت كونه تعالى قادرًا على كل الممكنات، وثبت أن حصول الحياة في هذه الذات ممكن، إذ لو لم يكن ممكنًا لما حصل في المرة الأولى، فيلزم من هاتين المقدمتين كونه تعالى قادرًا على الإحياء في المرة الثانية.

ولما بيّن تعالى إمكان القول بالحشر والنشر بهذين الطريقين، ذكر تفاصيل أحوال القيامة: فأولها: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: عامل النصب في (يوم تقوم) يخسر، و(يومئذ) بدل من يوم تقوم.

البحث الثاني: قد ذكرنا في مواضع من هذا الكتاب أن الحياة والعقل والصحة كأنها رأس المال، والتصرف فيها لطلب سعادة الآخرة يجري مجرى تصرف التاجر في رأس المال لطلب الربح، والكفار قد أتعبوا أنفسهم في هذه التصرفات وما وجدوا منها إلا الحرمان والخذلان، فكان ذلك في الحقيقة نهاية الخسران.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ قال الليث: الجثو: الجلوس على الرُكب كما يجثى بين يدي الحاكم. قال الزجاج: ومثله جذا يجذو. قال صاحب (الكشاف): وقرئ (جاذية)، قال أهل اللغة: والجذو أشد استيفازًا من الجثو؛ لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه، وعن ابن عباس: جاثية: مجتمعة مرتقبة لما يُعمل بها.

ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ على الابتداء وكل أمة على الإبدال من كل أمة، وقوله: ﴿إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ أي إلى صحائف أعمالها، فاكتفى باسم الجنس كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩] والظاهر أنه يدخل فيه المؤمنون والكافرون لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فإن قيل: الجثو على الركبة إنما يليق بالخائف،

والمؤمنون لا خوف عليهم يوم القيامة. قلنا: إن المحق الآمن قد يشارك المبطل في مثل هذه الحالة إلى أن يظهر كونه محقًا.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ والتقدير يقال: لهم اليوم تجزون، فإن قيل: كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله تعالى؟ قلنا: لا منافاة بين الأمرين لأنه كتابهم بمعنى أنه الكتاب المشتمل على أعمالهم، وكتاب الله بمعنى أنه هو الذي أمر الملائكة بكَتْبه ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ أي يشهد عليكم بما عملتم من غير زيادة ولا نقصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ الملائكة ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي نستكتبهم أعمالكم.

ثم بين أحوال المطيعين فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر بعد وصفهم بالإيمان كونهم عاملين للصالحات، فوجب أن يكون عمل الصالحات مغايرًا للإيمان زائدًا عليه.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: علق الدخول في رحمة الله على كونه آتيًا بالإيمان والأعمال الصالحة، والمعلق على مجموع أمرين يكون عدمًا عند عدم أحدهما، فعند عدم الأعمال الصالحة وجب أن لا يحصل الفوز بالجنة. وجوابنا: أن تعليق الحكم على الوصف لا يدل على عدم الحكم عند عدم الوصف.

المسألة الثالثة: سمى الثواب رحمة والرحمة إنما تصح تسميتها بهذا الاسم إذا لم تكن واجبة، فوجب أن لا يكون الثواب واجبًا على الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الله المؤمنين والكافرين ولم يذكر قسمًا ثالثًا، وهذا يدل على أن مذهب المعتزلة في إثبات المنزلتين باطل.

المسألة الثانية: أنه تعالى علل أن استحقاق العقوبة بأن آياته تليت عليهم فاستكبروا عن قبولها، وهذا يدل على أن استحقاق العقوبة لا يحصل إلا بعد مجيء الشرع، وذلك يدل على أن الواجبات لا تجب إلا بالشرع، خلافًا لما يقوله المعتزلة من أن بعض الواجبات قد يجب بالعقل.

المسألة الثالثة: جواب (أما) محذوف والتقدير: وأما الذين كفروا فيقال لهم: أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم عن قبول الحق وكنتم قومًا مجرمين. فإن قالوا: كيف يحسن وصف الكافر بكونه مجرمًا في معرض الطعن فيه والذم له؟ قلنا: معناه أنهم مع كونهم كفارًا ما كانوا عدولاً في أديان أنفسهم، بل كانوا فساقًا في ذلك الدين، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (والساعة) رفعًا ونصبًا، قال الزجاج: مَن نصب عطف على الوعد، ومن رفع فعلى معنى وقيل: الساعة لا ريب فيها. قال الأخفش: الرفع أجود في المعنى وأكثر في كلام العرب، إذا جاء بعد خبر (إنّ) لأنه كلام مستقل بنفسه بعد مجيء الكلام الأول بتمامه.

المسألة الثانية: حكى الله تعالى عن الكفار أنهم إذا قيل: إن وعد الله بالثواب والعقاب حق وإن الساعة آتية لا ريب فيها، قالوا: ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين.

أقول: الأغلب على الظن أن القوم كانوا في هذه المسألة على قولين: منهم من كان قاطعًا بنفي البعث والقيامة، وهم الذين ذكرهم الله في الآية المتقدمة بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾[الجاثية: ٢٤] ومنهم من كان شاكًّا متحيرًا فيه؛ لأنهم لكثرة ما سمعوه من الرسول ﷺ، ولكثرة ما سمعوه من دلائل القول بصحته، صاروا شاكّين فيه وهم الذين أرادهم الله بهذه الآية، والذي يدل عليه أنه تعالى حكى مذهب أولئك القاطعين، ثم أتبعه بحكاية قول هؤلاء، فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الأول.

ثم قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي في الآخرة ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ وقد كانوا من قبل يعدونها حسنات فصار ذلك أول خسرانهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهذا كالدليل على أن هذه الفرقة لما قالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ إنما ذكروه على سبيل الاستهزاء والسخرية، وعلى هذا الوجه فهذا الفريق شر من الفريق الأول؛ لأن الأولين كانوا منكرين وما كانوا مستهزئين، وهذا الفريق ضموا إلى الإصرار على الإنكار الاستهزاء.

ثم قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ وفي تفسير هذا النسيان وجهان: الأول: نترككم في العذاب كما تركتم الطاعة التي هي الزاد ليوم المعاد. الثاني: نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالى به، كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تلتفتوا إليه، بل جعلتموه كالشيء الذي يُطرح نسيًا منسيًا، فجمع الله تعالى عليهم من وجوه العذاب الشديد ثلاثة أشياء: فأولها:

قطع رحمة الله تعالى عنهم بالكلية. وثانيها: أنه يصير مأواهم النار. وثالثها: أن لا يحصل لهم أجر من الأعوان والأنصار، ثم بيّن تعالى أنه يقال لهم: إنكم إنما صرتم مستحقين لهذه الوجوه الثلاثة من العذاب الشديد؛ لأجل أنكم أتيتم بثلاثة أنواع من الأعمال القبيحة: فأولها: الإصرار على إنكار الدين الحق. وثانيها: الاستهزاء به والسخرية منه، وهذان الوجهان داخلان تحت قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾. وثالثها: الاستغراق في حب الدنيا والإعراض بالكلية عن الآخرة، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي (يَخرجون) بفتح الياء، والباقون بضمها ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم، أي يرضوه.

ولما تم الكلام في هذه المباحث الشريفة الروحانية، ختم السورة بتحميد الله تعالى فقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي فاحمدوا الله الذي هو خالق السموات والأرض، بل خالق كل العالمين من الأجسام والأرواح والذوات والصفات، فإن هذه الربوبية توجب الحمد والثناء على كل أحد من المخلوقين والمربوبين.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذا مشعر بأمرين: أحدهما: أن التكبير لا بد وأن يكون بعد التحميد، والإشارة إلى أن الحامدين إذا حمدوه وجب أن يعرفوا أنه أعلى وأكبر من أن يكون الحمد الذي ذكروه لائقًا بإنعامه، بل هو أكبر من حمد الحامدين، وأياديه أعلى وأجل من شكر الشاكرين. والثاني: أن هذا الكبرياء له لا لغيره؛ لأن واجب الوجود لذاته ليس إلا هو.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يعني أنه لكمال قدرته يقدر على خلق أي شيء أراد، ولكمال حكمته يخص كل نوع من مخلوقاته بآثار الحكمة والرحمة والفضل والكرم، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يفيد الحصر، فهذا يفيد أن الكامل في القدرة وفي الحكمة وفي الرحمة ليس إلا هو، وذلك يدل على أنه لا إله للخلق إلا هو، ولا محسن ولا متفضل إلا هو.

قال مولانا رضي الله عنه: تمّ تفسير هذه السورة يوم الجمعة بعد الصلاة، الخامس عشر من ذي الحجة، سنة ثلاث وستمائة، والحمد لله حمدًا دائمًا طيبًا مباركًا مخلدًا مؤبدًا، كما يليق بعلو شانه وباهر برهانه وعظيم إحسانه، والصلاة على الأرواح الطاهرة المقدسة من ساكني أعالي السموات، وتخوم الأرضين، من الملائكة والأنبياء والأولياء والموحدين، خصوصًا على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

سورة الجاثية

مكيَّةٌ كلُّها في قول الحسن [وعطاء] وجابر وعكرمة. وقال ابن عباس وقتادة: إلَّا آية، هي: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١٤] نزلت بالمدينة في عمرَ بن الخطاب ﷺ؛ ذكره الماوردي(١).

وقال المهدوي والنَّحَّاس عن ابن عباس: إنَّها نزلت في عمر ﷺ، شتَمه رجلٌ من المشركين بمكَّة قبل الهجرة، فأراد أنْ يبطش به، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾. ثم نُسِخت بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾(٢) [التوبة: ٥]. فالسورةُ كلُّها مكيةٌ على هذا من غير خلاف. وهي سبعٌ وثلاثون آية. وقيل: ست(٣).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ مبتدأ، و﴿تَنزِيلُ﴾ خبرُه. وقال بعضهم: «حم» اسم السورة، و«تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» مبتدأ، وخبره «مِنَ اللَّهِ».

و«الكتاب»: القرآن. و«الْعَزِيزِ»: المنيع. «الحكِيم» في فعله. وقد تقدَّم جميعُ هذا(٤).

---

(١) في النكت والعيون ٥ / ٢٦٠ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٥ ، وسيتكلم المصنف عليه ١٩/ ١٥٠ .

(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٨ .

(٤) ١/ ٤٢٩ ، ٢/ ٤٠٣ - ٤٠٤ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في خلقهما ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ . وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ . وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ﴾ يعني المطر. ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ تقدَّم جميعه مستوفًى في «البقرة» وغيرها(١).

وقراءةُ العامَّة: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ﴾ ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ﴾ بالرفع فيهما. وقرأ حمزةُ والكسائيّ بكسر التاء فيهما(٢).

ولا خلاف في الأوَّل أنَّه بالنصب على اسم «إنَّ»، وخبرُها «في السَّماوَاتِ». ووجه الكسر في «آيات» الثاني العطفُ على ما عملت فيه؛ التقدير: إنَّ في خلقكم وما يبثُّ منْ دابَّةٍ آياتٍ.

فأمَّا الثالث فقيل: إنَّ وجهَ النصب فيه تكريرُ «آيات» لمَّا طال الكلام؛ كما تقول: ضربتُ زيداً زيداً(٣).

وقيل: إنَّه على الحمل على ما عملَتْ فيه «إنَّ» على تقدير حذف «في»؛ التقدير: وفي اختلاف الليل والنهار آياتٍ. فَحُذِفت «في» لتقدُّم ذكرها. وأنشد سيبويه في الحذف(٤):

---

(١) ٢/ ٤٩٠ وما بعدها، و١٦/ ٤٦٦ .

(٢) السبعة ص ٥٩٤ ، والتيسير ص ١٩٨ .

(٣) ويكون قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ معطوفاً على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ . كما ذكر مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٠ ، ومثَّلَ له بقوله: ما زيدٌ قائماً ولا جالساً زيدٌ، فنصب جالساً على أن زيداً الأخير هو الأول، ولكن أظهرته ثانيةً للتأكيد. ومثَّل له العكبري في الإملاء ٢/ ٢٣٢: بقوله: إن بثوبك دماً وبثوب زيد دماً. فدم الثاني مكرر؛ لأنك مستغنٍ عن ذكره.

(٤) الكتاب ١/ ٦٦ ، ونسبه لأبي دؤاد.

أَكُلَّ امرئٍ تَحْسِبِينَ امرأً ونارٍ تَوَقَّدُ بالليل نارا

فحذفَ «كلّ» المضاف إلى نارٍ المجرورة لتقدُّمِ ذكرها.

وقيل: هو من باب العطف على عاملين. ولم يُجِزْه سيبويه، وأجازَه الأخفش وجماعةٌ من الكوفيين؛ فعطفَ «واخْتِلَافِ» على قوله: «وفي خَلْقِكُمْ» ثم قال: «وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٍ» فيحتاجُ إلى العطف على عاملين، والعطف على عاملين قبيحٌ من أجل أنَّ حروفَ العطف تنوب منابَ العامل، فلم تَقْوَ أنْ تنوبَ مناب عاملين مختلفين؛ إذْ لو نابَ مناب رافعٍ وناصب، لكان رافعاً ناصبًا في حال.

وأمَّا قراءةُ الرفع فحملاً على موضع «إنّ» مع ما عملت فيه.

وقد ألزم[١] النحويون في ذلك أيضاً العطفَ على عاملين؛ لأنَّه عَطَف[٢] «وَاخْتِلَافِ» على «وفِي خَلْقِكُمْ»، وعطف «آيات» على موضع «آيات» الأوَّل، ولكنَّه يقدَّر على تكرير «في».[٣]

ويجوزُ أنْ يُرفَع على القطع ممَّا قبلَه فيرفع بالابتداء، وما قبلَه خبره، ويكون عطفَ جملةٍ على جملة. وحكى الفرَّاء رفع «واختِلاف» و«آيات» جميعاً، وجعلَ الاختلاف هو الآيات[٤].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه آياتُ الله، أي: حُجَجُه وبراهينُه الدالَّةُ على وحدانيته وقدرته.

---

(١) في (د) و(ز) و(ق): التزمت، وفي (ظ): التزم.

(٢) بعدها في النسخ الخطية: على.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٣٢، والبيان لأبي البركات ابن الأنباري ٢/ ٣٦٣.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٤٥. ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن له ٤/ ١٤١ وقال: وقد كفى المؤونة فيه بأن قال: ولم أسمع أحداً قرأ به.

﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصِّدق الذي لا باطلَ ولا كذب فيه. وقُرِئ: «يَتْلُوهَا» بالياء[١].

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ﴾ أي: بعدَ حديث الله، وقيل: بعدَ قرآنه[٢] ﴿وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ وقراءةُ العامَّة بالياء على الخبر، وقرأ ابنُ مُحَيْصن، وأبو بكر عن عاصم، وحمزةُ، والكسائيُّ: «تُؤْمِنُونَ» بالتاء على الخطاب[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ «وَيْلٌ» وادٍ في جهنم[٤]. توعَّد من ترك الاستدلال بآياته. والأفَّاك: الكذَّاب، والإفكُ: الكذب. «أثيم» أي: مرتكبٌ للإثم[٥]. والمراد فيما رُوِيَ: النضرُ بن الحارث[٦]. وعن ابن عباس أنَّه الحارثُ بن كَلَدة[٧]. وحكى الثعلبيُّ أنَّه أبو جهل[٨] وأصحابه.

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ يعني آيات القرآن. ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: يتمادى على

---

(١) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٩، وهي قراءة شاذة.

(٢) ينظر الكشاف ٣/ ٥٠٩.

(٣) وهي قراءة ابن عامر ـ من السبعة ـ أيضاً. السبعة ص ٥٩٤، والتيسير ص ١٩٨.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١١٧١٢) عن أبي سعيد الخدري. وإسناده ضعيف. وسلف ٢/ ٢٢٠ - ٢٢١.

(٥) في (ظ): الإثم.

(٦) ذكر هذا القول أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٢٣، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٦٣ لابن جريج.

(٧) قول ابن عباس كما في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٢: أن الآية نزلت في النضر بن كلدة، وفي زاد المسير ٧/ ٣٥٥ عن ابن عباس أيضاً أنها نزلت في النضر بن الحارث.

(٨) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٨١، وذكر القول الآخر في أنها نزلت في النضر بن الحارث. ثم قال: والصواب أن سببها ما كان المذكوران وغيرهما يفعل، وأنها تعم كل من دخل تحت الأوصاف المذكورة إلى يوم القيامة.

كفره متعظِّمًا في نفسه عن الانقياد(١)؛ مأخوذٌ من صرَّ الصُّرة: إذا شدَّها. قال معناه ابن عباس وغيره(٢).

وقيل: أصلُه من إصرار الحمار على العانة(٣)، وهو أنْ ينحنيَ عليها صارًّا أذنيه. و«أنْ» من «كأنْ» مخففةٌ من الثقيلة؛ كأنَّه لم يسمعها، والضميرُ ضميرُ الشأن؛ كما في قوله:

كأنْ ظَبْيَةً تَعْطُو إلى ناضر السَّلَمْ(٤)

ومحل الجملة النصب [على الحال]، أي يُصِرُّ مثلَ غير السامع(٥). وقد تقدَّم في أوّل «لقمان» القولُ في معنى هذه الآية(٦). وتقدّم معنى ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في «البقرة»(٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ نحو قوله في الزَّقُّوم: إنَّه الزُّبدُ

---

(١) مجمع البيان ٢٥/ ١٢٧ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٦١ . وفيه أن قائله ابن عيسى . بدل : ابن عباس .

(٣) العانة : الأتان . القاموس المحيط (عون) .

(٤) هو عجز بيت صدره : ويوماً توافينا بوجه مُقَسَّم . نسبه سيبويه في الكتاب ٢/ ١٣٤ لابن صريم اليشكري ، ونسبه صاحب الأصمعيات ص ١٥٧ لعِلْبَاء بن أرقم . وتعطو : تناول ، يقال: عطا يعطو ، إذا تناول . ويروى : وارق السلم . بدل : ناضر . وناضر من النضارة ، وهي الحسن وأراد به خضرته . والسَلَم : ضربٌ من شجر البادية يعظم وله شوك ، واحدته سَلَمة . ينظر خزانة الآداب ١٠/ ٤١٦ .

(٥) الكشاف ٣/ ٥٠٩ . وما سلف بين حاصرتين منه، وتفسير الرازي ٢٧/ ٢٦١ .

(٦) ١٦/ ٤٦٥ .

(٧) ١/ ٣٠١ ، ٣٥٨ .

والتمر(١)، وقوله في خزنة جهنم: إنْ كانوا تسعةَ عشر فأنا ألقاهُم وحدي(٢). ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مُذِلٌّ مخزٍ.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: من وراء ما هم فيه من التعزُّز في الدنيا والتكبُّر عن الحقّ جهنمُ(٣). وقال ابن عباس: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: أمامهم(٤)، نظيره: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:١٦] أي: من أمامه. قال:

ألـيـسَ ورائـي إنْ تـراخـت مـنـيَّـتـي أَدِبُّ مع الـولـدان أزْحَفُ كـالـنَّـسْر(٥)

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا﴾ أي: من المال والولد؛ نظيره: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٠](٦).

﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: الأصنام. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: دائمٌ مؤلم.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ ابتداءٌ وخبر؛ يعني القرآن. وقال ابن عباس: يعني كلَّ ما جاء به محمدٌ ﷺ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: جحدوا دلائله.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ الرجز: العذاب، أي: لهم عذابٌ من عذابٍ أليم؛

---

(١) القائل أبو جهل كما أخرجه الطبري ١٤/٦٤٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) وهو حكاية عن استهزاء أبي جهل بالخَزَنة التسعة عشر أخرجه الطبري ٢٣/٤٣٦ عن ابن عباس وقتادة وابن زيد، ولفظ رواية ابن عباس أنَّ أبا جهل قال لقريش: أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أنّ خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدَّهم، أفيعجز كلُّ عشرة منكم أن يبطشوا برجلٍ من خزنة جهنم؟...

(٣) مجمع البيان ٢٥/١٢٧.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/٩٥.

(٥) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/٥١٠. دون نسبة. والشطر الأول صدر بيت للبيد، وعجزه: لزومُ العصا تُحنى عليها الأصابعُ. وهو في ديوانه ص ١٧٠، وسلف ١٢/١٢٠.

(٦) بعدها في (د) و(ز) و(م): أي من المال والولد.

دليله قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٥٩] أي: عذاباً. وقيل: الرِّجز القذَر مثل الرِّجس؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦] أي: لهم عذابٌ مِن تَجَرُّع الشراب القذِر[1].

وضمَّ الراءَ من الرِّجز ابنُ محيصن حيث وقع[2]. وقرأ ابنُ كثير وابن محيصن وحفص: «أَلِيمٌ» بالرفع[3]؛ على معنى لهم عذابٌ أليمٌ من رجز. الباقون بالخفض نعتاً للرجز.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ذكرَ كمالَ قدرته وتمام نعمته على عباده، وبيَّن أنَّه خلقَ ما خلقَ لمنافعهم. ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ يعني: أنَّ ذلك فعلُه وخلقُه وإحسانٌ منه وإنعام. وقرأ ابنُ عباس والجحدريُّ وغيرُهما: «جَمِيعاً مِنَّةً» بكسر الميم وتشديد النون وتنوين الهاء، منصوباً على المصدر[4]. قال أبو عمرو: وكذلك سمعتُ مَسْلَمَة يقرؤُها: «مِنَّةً»[5] أي: تفضُّلاً وكرمًا. وعن مَسْلَمَة بن مُحارب أيضاً: «جميعًا مَنُّهُ»

---

(١) الكلام بنحوه في الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ١٧٤ - ١٧٥ ، وينظر ما سلف ٢/ ١٣٤ .

(٢) إتحاف فضلاء البشر ص ١٨٠ .

(٣) السبعة ص ٥٩٤ ، والتيسير ص ١٨٠ . وقراءة ابن محيصن في المحرر الوجيز ٥/ ٨٢ .

(٤) المحتسب ٢/ ٢٦٢ . ونقل ابن عطية في المحرر ٥/ ٨٢ عن أبي حاتم قوله: سند هذه القراءة إلى ابن عباس مظلم .

(٥) لم نقف عليها. وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٨٢ ، والسمين في الدر المصون ٩/ ٦٤٥ عن مسلمة بن محارب: مِنَّةٌ؛ بكسر الميم ، وبالرفع في التاء . ومسلمة: هو ابن عبد الله بن محارب ، أبو عبد الله الفِهري البصري النحوي ، له اختيار في القراءة . . كان مع ابن إسحاق وأبي عمرو بن العلاء ، وقال مجاهد : كان من العلماء بالعربية . غاية النهاية ٢/ ٢٩٨ .

على إضافة المنِّ إلى هاء الكناية. وهو عند أبي حاتم خبرُ ابتداءٍ محذوف، أي: ذلك، أو هو مَنُّه[(١)]. وقراءة الجماعة ظاهرة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾ جزم على جواب «قُلْ» تشبيهًا بالشرط والجزاء؛ كقولك: قُمْ تُصِب خيرًا[(٢)]. وقيل: هو على حذف اللام. وقيل: على معنى قل لهم: اغفروا؛ يغفروا؛ فهو جوابُ أمرٍ محذوف؛ دلَّ الكلامُ عليه؛ قاله عليّ بن عيسى واختاره ابن العربيّ[(٣)].

ونزلت الآيةُ بسبب أنَّ رجلاً من قريش شتم عمرَ بن الخطاب، فهمَّ أنْ يبطشَ به. قال ابنُ العربيّ: وهذا لم يصح[(٤)].

وذكر الواحديُّ[(٥)] والقشيريُّ وغيرهما عن ابن عباس أنَّ الآيةَ نزلت في عمرَ مع عبد الله بن أُبَيّ في غَزْوة بني المُصْطَلِق، فإنَّهم نزلُوا على بئرٍ يُقَال لها: المُرَيْسِيع، فأرسلَ عبدُ الله غلامه ليستقي، وأبطأ عليه فقال: ما حبسَك؟ قال: غلامُ عمرَ بن الخطاب قعد على فم البئر، فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قِربَ النبيِّ ﷺ وقِرَب أبي بكر، وملأ لمولاه. فقال عبد الله: ما مَثَلُنا ومثلُ هؤلاء إلَّا كما قيل: سَمِّن كلبك يأكُلْك. فبلغ عمرَ ﷺ قولُه، فاشتملَ على سيفه يريد التوجُّه إليه ليقتلَه؛ فأنزلَ الله هذه الآية. هذه روايةُ عطاء عن ابن عباس.

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٦٢.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٤٦، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٣.

(٣) نقله عن علي بن عيسى النحاسُ في إعراب القرآن ٤/ ١٤٣، واختيار ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨١.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٨١، وسلف الخبر في سبب النزول ص١٤٣ من هذا الجزء.

(٥) في أسباب النزول ص٤٠١.

ورَوى عنه ميمونُ بن مِهران قال: لمَّا نزلت ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال يهوديٌّ بالمدينة يقالُ له فِنحاص: احتاج ربُّ محمد! قال: فلمَّا سمع عمرُ بذلك اشتملَ على سيفه وخرج في طلبه، فجاءَ جبريلُ عليه السلام إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ ربّك يقول لك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾. واعلم أنَّ عمرَ قد اشتملَ على سيفه، وخرجَ في طلب اليهوديّ؛ فبعثَ رسولُ الله ﷺ في طلبه، فلمَّا جاء قال: «يا عمر، ضَعْ سيفك» قال: يا رسول الله، صدقت، أشهدُ أنَّك أُرسِلت بالحق. قال: «فإنَّ ربك يقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ قال: لا جرم! والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي»[(١)].

قلت: وما ذكره المهدوِيُّ والنَّحّاس[(٢)] فهو رواية الضَّحّاك عن ابن عباس، وهو قول القُرَظيّ والسُّدِّي[(٣)]، وعليه يتوجَّه النسخُ في الآية. وعلى أنَّ الآيةَ نزلت بالمدينة، أو في غزوة بني المُصْطَلِق؛ فليست بمنسوخة.

ومعنى «يَغْفِرُوا»: يعفوا ويتجاوزوا. ومعنى «لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ»: أي: لا يرجون ثوابَه. وقيل: أي لا يَخافون بأسَ الله ونِقَمه. وقيل: الرجاءُ بمعنى الخوف؛ كقوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: لا تخافون له عظمةً. والمعنى: لا يَخْشَوْن[(٤)] مثلَ عذاب الأمم الخالية. والأيام يُعبَّر بها عن الوقائع. وقيل: لا يأمُلون نصرَ الله لأوليائه وإيقاعَه بأعدائه[(٥)]. وقيل: المعنى: لا يخافون البعث.

﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ قراءةُ العامَّة: «لِيَجْزِيَ» بالياء على معنى: ليجزيَ اللهُ.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

(٢) سلف قولهما أول السورة.

(٣) قولهما كما ذكر البغوي في تفسيره ٤/ ١٥٨ : نزل في أناس من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة كانوا في أذىً شديد من المشركين ، من قبل أن يؤمروا بالقتال ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ؛ فأنزل الله هذه الآية .

(٤) في (م) لا تخشون .

(٥) ينظر الكشاف ٣/ ٥١٠ .

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وابنُ عامر: «لِنَجْزِيَ» بالنون على التعظيم. وقرأ أبو جعفر والأعرجُ وشيبةُ: «لِيُجْزى» بياءٍ مضمومة، وفتحِ الزاي على الفعل المجهول، «قَوْماً» بالنصب[(١)]. قال أبو عمرو: وهذا لحنٌ ظاهر. وقال الكسائيُّ: معناه: ليُجْزَى الجزاءُ قومًا[(٢)]، نظيره: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ على قراءة ابن عامر وأبي بكر في سورة الأنبياء [الآية: ٨٨][(٣)]. قال الشاعر:

ولو وَلَدَتْ قُفَيْرَةُ جَرْوَ كَلْبٍ لَسُبَّ بذلك الجَرْوِ الكلابا[(٤)]

أي: لَسُبَّ السَّبُّ.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

تقدَّم[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة. ﴿وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الحكم: الفهمُ في الكتاب. وقيل: الحكم على النَّاس والقضاء[(٦)]. «والنُّبُوَّة» يعني: الأنبياء من وقت يوسفَ عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام.

---

(١) السبعة ص٥٩٥، والتيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧٢.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٥٨.

(٣) التيسير ص ١٥٥.

(٤) البيت لجرير، وسلف ١٤/ ٢٧٦.

(٥) عند تفسير الآية (٤٦) من سورة فصلت.

(٦) الكشاف ٣/ ٥١١.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: الحلال من الأقوات والثِّمار والأطعمة التي كانت بالشام. وقيل: يعني المَنَّ والسَّلْوَى في التِّيه.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على عالَمِي زمانِهم؛ على ما تقدَّم في «الدخان» بيانه(١).

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ قال ابن عباس: يعني أمرَ النبيِّ ﷺ، وشواهدَ نبوَّته بأنَّه يهاجر من تِهامة إلى يَثْرِب، وينصره أهلُ يثرب(٢). وقيل: بيّناتٍ من الأمرِ: شرائعُ واضحاتٌ في الحلال والحرام ومعجزات.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ يريد يُوشَع بن نُون؛ فآمنَ بعضهم وكفر بعضهم؛ حكاه النقاش(٣). وقيل: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بنبوَّة النبيِّ ﷺ فاختلفوا فيها.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: حسدًا على النبيِّ ﷺ؛ قال معناه الضحاك(٤). وقيل: معنى «بغْيًا»: أي: بَغَى بعضُهم على بعضٍ بطلبِ الفَضْل والرياسة، وقتلوا الأنبياء؛ فكذا مشركو عصرك يا محمد، قد جاءتهم البيِّناتُ، ولكنْ أعرضوا عنها للمنافسة في الرياسة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ أي: يحكم ويَفْصِل ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾

فيه مسألتان:

---

(١) ص١٢٣ من هذا الجزء.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٦٥ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٦٣ .

(٤) قول الضحاك كما في النكت والعيون ٥/ ٢٦٣ : بغيًا على رسول الله ﷺ في جحود ما في كتابهم من نبوة وصفته.

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ الشريعة في اللُّغة: المذهبُ والمِلَّة. ويقال لِمَشْرَعة الماء ـ وهي موردُ الشاربة ـ: شريعة[١]. ومنه الشارع؛ لأنَّه طريقٌ إلى المَقْصِد. فالشريعة: ما شَرَع الله لعباده من الدين، والجمعُ الشرائع[٢]. والشرائع في الدين: المذاهبُ التي شَرَعها الله لخلقه. فمعنى: ﴿جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: على منهاجٍ واضحٍ من أمر الدّين يَشْرَعُ بك إلى الحقّ.

وقال ابن عباس: «عَلَى شَرِيعَةٍ» أي: على هدًى من الأمر. قتادة: الشريعةُ: الأمرُ والنهيُ والحدودُ والفرائض[٣]. مقاتل: البيِّنة؛ لأنَّها طريقٌ إلى الحقّ. الكلبيّ: السُّنَّة؛ لأنَّه يَستنُّ بطريقة مَن قبله من الأنبياء. ابن زيد: الدِّين؛ لأنَّه طريقُ النجاة[٤].

قال ابن العربيّ[٥]: والأمرُ يَرِدُ في اللُّغة بمعنيين: أحدهما: بمعنى الشأن، كقوله: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود:٩٧]. والثاني: أحد أقسام الكلام الذي يقابله النهي. وكلاهما يصحُّ أنْ يكونَ مرادًا هاهنا؛ وتقديرُه: ثمَّ جعلناك على طريقةٍ من الدين، وهي ملَّة الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

ولا خلاف أنَّ الله تعالى لم يُغَاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح، وإنَّما خالفَ بينها[٦] في الفروع؛ حسبما علمه سبحانه.

الثانية: قال ابنُ العربيّ[٧]: ظنَّ بعضُ من تكلَّم[٨] في العلم أنَّ هذه الآيةَ دليلٌ

(١) الصحاح (شرع).

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٢٤ - ٤٢٥.

(٣) أخرجهما الطبري ٢١/ ٨٥.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٦٤.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٢.

(٦) في النسخ: بينهما. والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٢، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٨) في (د) و(ز) و(ق) و(م): يتكلم.

على أنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنا ليس بشرعٍ لنا ؛ لأنَّ الله تعلى أفردَ النبيَّ ﷺ وأمته في هذه الآية بشريعة، ولا ننكر[1] أنَّ النبيَّ ﷺ وأمتَه منفردان بشريعة، وإنَّما الخلافُ فيما أخبر النبيُّ ﷺ عنه مِن شرع مَن قبلَنا في مَعرض المدح والثناء [والعظة]، هل يلزمُ اتِّباعه أم لا؟

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: المشركين. وقال ابن عباس: قُريظة والنَّضِير. وعنه: نزلتْ لمَّا دعته قريشٌ إلى دين آبائه[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: إنْ اتَّبعتَ أهواءَهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئاً[3]. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: أصدقاءُ وأنصار وأحباب. قال ابن عباس[4]: يريد أنَّ المنافقينَ أولياءُ اليهود.

﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ناصرُهم ومُعِينُهم. والمتَّقون هنا: الذين اتَّقوا الشركَ والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ ابتداءٌ وخبر، أي: هذا الذي أَنْزلتُ عليك براهينُ ودلائلُ ومعالمُ للنَّاس في الحدود والأحكام[5]. وقُرِئ: «هَذِهِ بَصَائِرُ» أي: هذه الآيات[6]. ﴿وَهُدًى﴾ أي: رَشَدٌ وطريقٌ يؤدّي إلى الجنَّة لمن أَخَذَ به. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾

---

(١) في (خ) و(ظ) و(ق): ينكر.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٦٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٥٩.

(٤) في (ظ): ابن زيد.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٥٩.

(٦) الكشاف ٣/ ٥١١، والقراءة المذكورة شاذة.

في الآخرة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: اكتسبوها. والاجتراح: الاكتساب؛ ومنه الجوارح[(١)]، وقد تقدَّم في المائدة[(٢)].

﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال الكلبيّ: «الَّذِينَ اجْتَرَحُوا» عُتبةُ وشَيبةُ ابنا ربيعة والوليدُ بن عُتبة. و«الَّذِينَ آمَنُوا» عليٌّ وحمزةُ وعُبيدةُ بن الحارث ﷺ حين بَرزُوا إليهم يومَ بدرٍ فقتلوهم[(٣)]. وقيل: نزلت في قومٍ من المشركين قالوا: إنَّهم يُعطَون في الآخرة خيرًا مما يُعطَاه المؤمن[(٤)]؛ كما أخبر الربُّ عنهم في قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقوله: «أَمْ حَسِبَ» استفهامٌ معطوفٌ معناه الإنكار. وأهلُ العربيةِ يُجوِّزون ذلك من غير عطف إذا كان متوسطاً للخطاب. وقوم يقولون: فيه إضمار، أي: والله وليُّ المتقين؛ أفيعلمُ المشركون ذلك؛ أم حسبوا أنَّا نسوِّي بينهم.

وقيل: هي أم المنقطعة، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحُسبان[(٥)]. وقراءةُ العامَّة: «سَوَاءٌ» بالرفع على أنَّه خبرُ ابتداءٍ مقدَّم، أي: محياهم ومماتهم سواء. والضمير في «مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» يعود على الكفار[(٦)]، أي: محياهم محيا سوء، ومماتهم كذلك.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١١ .

(٢) ٧/ ٣٠٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٦٤ . وخبر المبارزة أخرجه أحمد (٩٤٨) عن علي ﷺ .

(٤) ذكر نحوه البغوي في تفسيره ٤/ ١٥٩ .

(٥) الكشاف ٣/ ٥١١ .

(٦) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٢ .

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ والأعمشُ: «سَوَاءً» بالنصب[١]، واختاره أبو عبيد قال: معناه نجعلهم سواءً[٢]. وقرأ الأعمش أيضًا وعيسى بن عمر: «وَمَمَاتَهم» بالنصب[٣]؛ على معنى سواءً في محياهم ومماتهم؛ فلما أُسقط الخافضُ انتصب. ويجوزُ أنْ يكون «مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» بدلاً من الهاء والميم في نجعلهم؛ المعنى: أنْ نجعلَ محياهم ومماتَهم سواءً كمحيا الذين آمنوا ومماتِهم[٤]. ويجوزُ أنْ يكون الضميرُ في «مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» للكفار والمؤمنين جميعًا[٥].

قال مجاهد: المؤمنُ يموت مؤمنًا ويُبعث مؤمنًا، والكافرُ يموت كافرًا ويُبعث كافرًا[٦]. وذكر ابنُ المبارك: أخبرنا شعبةُ، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي الضُّحى، عن مسروق قال: قال رجلٌ من أهل مكَّة: هذا مقامُ تميم الداري، لقد رأيتُه ذاتَ ليلةٍ حتى أصبح أو قرب أن يُصبح يقرأُ آيةً من كتاب الله، ويركع، ويسجد، ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ الآية كلها[٧].

وقال: نُسَير[٨]: بِتُّ عند الربيع بن خُثَيْم ذاتَ ليلةٍ، فقامَ يُصَلِّي، فمرَّ بهذه الآية، فمكث لَيلَه حتى أصبح لم يَعْدُها ببكاءٍ شديد[٩]. وقال إبراهيم بن الأشعث: كثيرًا

---

(١) وهي قراءة حفص عن عاصم أيضاً. السبعة ص ٥٩٥، والتيسير ص ١٩٨. وذكرها عن الأعمش ابنُ خالويه في القراءات الشاذة لابن خالويه ص ١٣٨.

(٢) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٥.

(٣) قراءة الأعمش في القراءات الشاذة ص ١٣٨.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٣٣، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٦ - ١٤٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٥٩.

(٦) تفسير مجاهد ٢/ ٥٩١، وأخرجه الطبري ٢١/ ٨٨ بنحوه.

(٧) الزهد لابن المبارك (٦٤)، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٥٠)، وقال ابن حجر في الإصابة ١/ ٣٠٥: رواه البغوي في الجعديات بإسناد صحيح إلى مسروق.

(٨) في النسخ: بشير، والمثبت من المصادر، وهو نُسَير بن ذُعْلُوق الثوري مولاهم، أبو طعمة الكوفي. تهذيب التهذيب ٤/ ٢١٦.

(٩) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٤٧٧، ١٣/ ٣٩٦.

ما رأيتُ الفُضيلَ بن عياض يردِّد من أوَّل الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرَها، ثم يقول: ليت شعري! مِن أيِّ الفريقين أنت[١]؟ وكانت هذه الآية تُسمَّى مَبكاة العابدين[٢]، لأنَّها محكمة.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالأمر الحقّ. ﴿وَلِتُجۡزَىٰ﴾ أي: ولكي تُجزى. ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ أي: في الآخرة. ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قال ابنُ عباس والحسن وقتادة: ذلك الكافر اتَّخذَ دينَه ما يهواه؛ فلا يهوى شيئًا إلَّا ركبه[٣]. وقال عكرمة: أفرأيت من جَعَل إلهه الذي يعبدُه ما يهواه أو يستحسنه؛ فإذا استحسن شيئاً وهَوِيَهُ اتَّخذه إلهًا.

قال سعيدُ بن جُبير: كان أحدُهم يَعبدُ الحجر؛ فإذا رأى ما هو أحسنُ منه رمى به، وعبد الآخر[٤].

وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن قيس السهميّ؛ أحد المستهزئين، لأنَّه كان يعبدُ ما تهواه نفسه[٥].

وقال سفيانُ بن عيينة: إنَّما عبدوا الحجارة لأنَّ البيتَ حجارة.

---

(١) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥١٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٨٥ دون نسبة.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٨٥ ونسب هذا القول للثعلبي.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٥٩، وينظر النكت والعيون ٥/ ٢٦٤، وأخرج قول ابن عباسٍ وقتادة الطبريُّ ٢١/ ٩٢ - ٩٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٦٢.

وقيل: المعنى: أفرأيتَ من يَنقادُ لهواه انقياده لإلهه[١] ومعبودِه؛ تعجيباً لذوي العقول من هذا الجهل[٢].

وقال الحسين بن الفضل: في هذه الآية تقديمٌ وتأخير، مجازه: أفرأيتَ من اتَّخذ هواه إلهه.

وقال الشَّعْبيُّ: إنَّما سُمِّي الهوى؛ لأنَّه يهوي بصاحبه في النَّار.

وقال ابنُ عباس: ما ذَكر اللهُ هَوًى في القرآن إلَّا ذمَّه[٣]، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف:١٧٦] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]. وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الروم:٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبيِّ ﷺ: «لا يُؤمن أحدُكم حتى يكون هواه تَبَعاً لما جئتُ به»[٤].

وقال أبو أمامة: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «ما عُبِد تحت السماء إلهٌ أبغض إلى الله من الهوى»[٥]. وقال شدَّادُ بن أوس عن النبيِّ ﷺ: «الكَيِّس من دَان نفسَه، وعَمِلَ لِمَا

---

(١) قوله: انقياده لإلهه. من (خ) و(ظ).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٨٦. وقول الشعبي السالف منه.

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٤/ ٣٦٩، والبغوي في شرح السنة ١/ ٢١٣.
قال الإمام النووي: حديث حسن صحيح. وينظر كلام الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم ٢/ ٣٩٣ - ٣٩٥.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ الواحدي في الوسيط ٤/ ٩٩. وأخرجه بنحوه ابن أبي عاصم في السنة (٣)، والطبراني في الكبير (٧٥٠٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٨: وفيه الحسن بن دينار، وهو متروك الحديث. اهـ. وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٣٢٦: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، وفيه جماعة ضعاف، والحسن بن دينار والخصيب كذابان عند علماء النقل.

بعد الموت. والعاجز[١] من أتبعَ نفسَه هواها، وتمنَّى على الله»[٢]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا رأيتَ شُحًّا مطاعًا، وهَوًى مُتَّبَعًا، ودنيا مؤثَرة، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه؛ فعليك بخاصَّة نفسك، ودَعْ عنك أمرَ العامَّة»[٣]. وقال ﷺ: «ثلاثٌ مهلكات، وثلاثٌ منجيات، فالمهلكات: شُحٌّ مطاعٌ، وهوًى مُتَّبعٌ، وإعجابُ المرء بنفسه. والمنجياتُ: خشيةُ الله في السرِّ والعلانية، والقصدُ في الغنى والفقر، والعدلُ في الرضا والغضب»[٤]. وقال أبو الدرداء ﷺ: إذا أصبحَ الرجلُ، اجتمعَ هواه وعمله وعلمه؛ فإنْ كان عمله تبعًا لهواه فيومُه يومُ سوء، وإنْ كان عملُه تبعًا لعلمه فيومه يوم صالح[٥].

وقال الأصمعي: سمعتُ رجلاً يقول:

إنَّ الهَوانَ هو الهوى قُلِبَ اسمُه ... فإذا هَوِيتَ فقد لقيتَ هَوانا

وسُئِل ابن المقفَّع عن الهوى فقال: هَوَانٌ سُرقت نونه، فنظمه شاعرٌ فقال[٦]:

نُونُ الهَوانِ من الهَوَى مسروقةٌ ... فإذا هَوِيتَ فقد لقيتَ هَوانا[٧]

وقال آخر:

إنَّ الهوى لهو الهوانُ بعينهِ ... فإذا هَوِيتَ فقد كَسَبتَ هَوانا

---

(١) في (د) و(ز) و(ق) و(م): الفاجر، وفي (ظ): العاجل، والمثبت من (خ) وهو الموافق للمصادر.

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، وفي إسناده أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف. وسلف بعضه ١/ ٢٢١.

(٣) سلف ٨/ ٢٥٠.

(٤) أخرجه البزار (كشف الأستار) (٨٠)، والطبراني في الأوسط (٥٤٤٨) عن أنس بن مالك ﷺ. قال المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٣٦٢: وهو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال، فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى.

(٥) ذكره ابن الجوزي في ذم الهوى ص ٢٢، وصفة الصفوة ١/ ٦٣٦ بنحوه.

(٦) في (م): فأخذه شاعر فنظمه وقال.

(٧) ذم الهوى لابن الجوزي ص٣٣. وهذا البيت نسبه الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص١١٣ لعبيد الله ابن عبد الله بن طاهر.

وإذا هَـوِيـتَ فـقـد تـعـبَّـدك الـهـوى فـاخْـضَـعْ لِـحبِّـك كـائـنًـا مـن كـانـا[١]

ولعبد الله بن المبارك:

ومـن الـبـلاء ولـلـبـلاء[٢] عـلامـةٌ ألَّا يُـرى لـك عـن هـواك نـزوعُ

الـعـبدُ عـبدُ الـنَّـفْـس في شـهـواتـهـا والـحـرُّ يـشـبـع تـارةً ويـجـوعُ[٣]

ولابن دُرَيْد:

إذا طـالـبـتـك الـنَّـفْـسُ يـومًـا بـشـهـوةٍ وكـان إلـيـهـا لـلـخـلاف طـريـقُ

فَـدَعْـهـا وخـالـفْ مـا هَـوِيـتَ فـإنَّـمـا هـواكَ عـدوٌّ والـخـلافُ صـديـقُ[٤]

ولأبي عبيد الطُّوسيّ:

والـنـفـسُ إنْ أعـطـيـتَـهـا مُـنـاهـا فـاغـرةٌ نـحـو هـواهـا فـاهـا[٥]

وقال أحمدُ بن أبي الحَواري: مررتُ براهبٍ فوجدته نحيفًا، فقلت له: أنت عليل؟ قال: نعم. قلت: مذْ كم؟ قال: مذْ عرفتُ نفسي! قلت: فتداوى؟ قال: قد أعياني الدواء وقد عزمتُ على الكيّ. قلت: وما الكَيّ؟ قال: مخالفةُ الهوى[٦].

وقال سهلُ بن عبد الله التُّسْتَرِيّ: هواك داؤُك، فإنْ خالفتَه فدواؤك.

وقال وَهْب: إذا شككتَ في أمرين ولم تدرِ خيرهما، فانظرْ أبعدَهما من هواك فأْته[٧].

---

(١) ذكر الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص ٤٥٤ البيت الثاني، وقبله البيت السالف الذي أوله: نون الهوان. . .

(٢) في (د) و(ز) و(م): ومن البلايا للبلاء، وفي (خ) و(ق): ومن البلاء للبلاء. والمثبت من (ظ) والمصادر.

(٣) البيتان في بهجة المجالس ٢/٣٠٦، وذم الهوى ص ٣٤.

(٤) البيتان ذكرهما الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص ٤٥٣ دون نسبة. وفيه: فخالف هواها ما استطعت. بدل: فدعها وخالف ما هويت.

(٥) البيت لأبي العتاهية كما في أشعاره وأخباره ص ٤٥٩، وفيه: اتبعتها. بدل: أعطيتها.

(٦) ذم الهوى ص ٢٨.

(٧) المحرر الوجيز ٥/٨٦. ونسب القول الأخير أيضاً لسهل بدل: وهب.

وللعلماء في هذا الباب في ذمِّ الهوى ومخالفته كتبٌ وأبوابٌ أشرنا إلى ما فيه كفايةٌ منه؛ وحسبُك بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ . فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على علمٍ قد علمَه منه. وقيل: أضلَّه عن الثواب على علمٍ منه بأنَّه لا يستحقه[١]. وقال ابن عباس: أي على علمٍ قد سبق عنده أنَّه سيَضل. مقاتل: على علمٍ منه أنَّه ضالّ[٢]. والمعنى متقارب. وقيل: على علمٍ من عابد الصنم أنَّه لا ينفع ولا يضر. ثم قيل: «عَلَى عِلْمٍ» يجوزُ أنْ يكون حالاً من الفاعل؛ المعنى: أضلَّه على علمٍ منه به، أي: أضلَّه عالماً بأنَّه من أهل الضَّلال في سابق علمه. ويجوز أنْ يكون حالاً من المفعول؛ فيكون المعنى: أضلَّه في حال علم الكافر بأنَّه ضال.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي: طبع على سمعه حتى لا يسمعَ الوعظ، وطبعَ على قلبه حتى لا يفقَه الهدى. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ أي: غطاءً حتى لا يبصر الرشد[٣]. وقرأ حمزةُ والكسائيّ: «غَشْوة» بفتح الغين من غير ألف[٤]، وقد مضى في «البقرة»[٥]. وقال الشاعر:

أمـا والـذي أنـا عـبـدٌ لـه ... يَـمـيـنًـا ومـالَـك أُبـدي الـيـمـيـنـا
لـئـن كـنـتَ ألـبـسـتـنـي غَـشْـوةً ... لـقـد كـنـتُ أصـفـيـتُـك الـوُدَّ حـيـنـا[٦]

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: من بعد أنْ أضلَّه. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: تتَّعظون وتعرفون

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٧-١٤٨ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥ .

(٤) السبعة ص ٥٩٥ ، والتيسير ص ١٩٩ .

(٥) ١/ ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٦) لم نقف عليهما .

أنَّه قادرٌ على ما يشاء.

وهذه الآيةُ تردُّ على القدريَّة والإماميَّة ومن سلك سبيلَهم في الاعتقاد؛ إذْ هي مصرِّحةٌ بمنعهم من الهداية.

ثم قيل: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ إنَّه خارجٌ مخرجَ الخبر عن أحوالهم. وقيل: إنَّه خارجٌ مخرجَ الدُّعاء بذلك عليهم[١]؛ كما تقدَّم في أوّل «البقرة»[٢].

وحكى ابنُ جُريج أنَّها نزلت في الحارث بن قيس من الغياطلة[٣].

وحكى النَّقَاش أنَّها نزلت في الحارث بن نوفل بن عبد مناف[٤].

وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنَّه طاف بالبيت ذات ليلةٍ ومعه الوليد ابن المغيرة؛ فتحدَّثا في شأن النبيِّ ﷺ، فقال أبو جهل: والله إني لأَعلم إنَّه لَصادق! فقال له: مَهْ! وما دلَّك على ذلك! قال: يا أبا عبد شمس، كنَّا نسمِّيه في صباهُ الصادقَ الأمين؛ فلما تمَّ عقلُه وكَمُل رُشْده، نسمِّيه الكذَّابَ الخائن!! والله إنِّي لأَعلم إنَّه لصادق! قال: فما يمنعُك أنْ تصدِّقَهُ وتؤمنَ به؟ قال: تتحدَّثُ عني بناتُ قريش أني قد اتَّبعت يتيمَ أبي طالبٍ من أجل كِسرة، واللاتِ والعُزَّى إنْ اتَّبعتُه أبداً. فنزلت: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾[٥].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ هذا إنكارٌ منهم للآخرة،

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٢) ١/ ٢٨٤.

(٣) قال ابن دريد في الاشتقاق ١/ ١٢٠: بنو قيس بن عدي، كانوا من رجال قريش، يلقَّبون الغياطل. وكان قيس بن عدي سيِّد قريش في دهره غير مُدافَع... والغياطل: جمع غيطلة، وهو الشجر الملتف.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥ ونسب القول الأخير للضحاك بدل النقاش.

(٥) لم نقف عليه.

وتكذيبٌ للبعث، وإبطالٌ للجزاء. ومعنى: «نَمُوتُ وَنَحْيَا» أي: نموتُ نحن وتحيا[١] أولادنا؛ قاله الكلبيّ. وقُرئ: «ونُحْيَا» بضم النون. وقيل: يموتُ بعضنا ويحيا بعضنا. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي: نحيا ونموت؛ وهي قراءة ابن مسعود[٢].

﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ قال مجاهد: يعني السنين والأيام. وقال قتادة: إلّا العمر[٣]؛ والمعنى واحد. وقُرِئ: «إلا دهرٌ يمرّ»[٤].

وقال ابنُ عيينة: كان أهلُ الجاهلية يقولون: الدهرُ هو الذي يُهلكنا، وهو الذي يُحيينا ويُميتنا؛ فنزلتْ هذه الآية[٥]. وقال قُطْرب: وما يُهلكُنا إلّا الموت؛ وأنشد قولَ أبي ذُؤيب:

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِها تتوجَّعُ والدّهْرُ ليس بمعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ[٦]

وقال عكرمة: أي: وما يُهلكُنا إلّا الله[٧]. وروَى أبو هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «كان أهلُ الجاهلية يقولون: ما يهلِكُنا إلّا الليلُ والنَّهار، وهو الذي يهلكُنا ويميتُنا ويحيينا، فيسبُّون الدهرَ. قال الله تعالى: يؤذيني ابنُ آدم يَسُبُّ الدَّهْرَ، وأنا الدَّهْرُ، بيدي الأمرُ، أُقلِّبُ الليلَ والنهار[٨]».

قلت: قوله: قال الله. إلى آخره. نَصُّ البخاريِّ ولفظُه. وخرَّجه مسلمٌ أيضاً

---

(١) في (د) و(م): يحيا.

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٢٦٦.

(٣) أخرجهما الطبري ٢١/ ٩٦.

(٤) هي قراءة ابن مسعود كما في تفسير الطبري ٢١/ ٩٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٨٧. وقال ابن خالويه: يهلكنا إلا دهراً؛ ابن مسعود. تأويله إلا دهراً يمر.

(٥) أخرجه ابن حبان (٥٧١٥)، والحاكم ٢/ ٤٥٣.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٦٦. والبيت في ديوان الهذليين ١/ ١.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٦٦.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٩٧.

وأبو داود[١].

وفي الموطأ عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يقولَنَّ أحدُكم: يا خيبةَ الدهر، فإنَّ الله هو الدهر»[٢].

وقد استدلَّ بهذا الحديث من قال: إنَّ الدهرَ من أسماء الله.[٣] وقال من لم يجعلهُ من العلماء اسماً: إنَّما خرج ردًّا على العرب في جاهليتها؛ فإنَّهم كانوا يعتقدونَ أنَّ الدهرَ هو الفاعل، كما أخبر اللهُ عنهم في هذه الآية؛ فكانوا إذا أصابهم ضَرٌّ أو ضَيْمٌ أو مكروه، نَسبوا ذلك إلى الدهر، فقيل لهم على ذلك: لا تسبُّوا الدهرَ؛ فإنَّ الله هو الدهر، أي: إنَّ اللهَ هو الفاعلُ لهذه الأمور التي تضيفونَها إلى الدهر، فيرجعُ السبُّ إليه سبحانه، فَنُهُوا عن ذلك. ودلَّ على صحة هذا ما ذكره من حديث أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: قال اللهُ تبارك وتعالى: يؤذيني ابنُ آدم ... الحديث[٤]. ولقد أحسنَ من قال، وهو أبو عليٍّ الثقفي:

يا عاتبَ الدهرِ إذا نابَهُ ... لا تَلُمِ الدهرَ على غَدْرِهِ[٥]
الدهرُ مأمورٌ، له آمرٌ ... وينتهي الدهرُ إلى أمرهِ
كم كافرٍ أموالُه جَمَّةٌ ... تزدادُ أضعافًا على كفرهِ[٦]
ومؤمنٍ ليس له درهمٌ ... يزداد إيمانًا على فَقْرِهِ[٧]

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٢٦)، وصحيح مسلم (٢٢٤٦): (٢)، وسنن أبي داود (٥٢٧٤)، وهو عند أحمد (٧٢٤٥).

(٢) الموطأ ٢/ ٩٨٤، وأخرجه أيضاً أحمد (٩١١٦)، ومسلم (٢٢٤٦) (٤).

(٣) الصحيح أن الدهر ليس من أسماء الله عز وجل. وانظر كلام المصنف بعده.

(٤) سلف قريباً. والكلام بنحوه في المفهم ٥/ ٥٤٩.

(٥) الشطر الأول في المصادر الآتي ذكرها: يا لائم الدهر إذا ما نبا.

(٦) الشطر الأول في المصادر: كم كافرٍ بالله أمواله.

(٧) روضة العقلاء ص ٢٨٠، وشعب الإيمان ١/ ٢٣٢. ونسب فيه لأحمد بن عبيد الله الدارمي.

وروي أنَّ سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيراً ما يذكرُ الدَّهرَ، فزجرهُ أبوه وقال: إيَّاكَ يا بنيَّ وذِكْرَ الدهر! وأنشد:

فما الدهرُ بالجاني لشيءٍ لحَيْنِه ولا جالبَ البَلْوَى فلا تشتم الدَّهْرَا

ولكنْ متى ما يبعثِ الله باعثًا على معشرٍ يَجعلْ مياسيرهم عُسْرا

وقال أبو عبيد[١]: ناظرتُ بعضَ المُلْحدة فقال: ألا تراه يقول: «فإنَّ الله هو الدهر»!؟ فقلتُ: وهل كان أحدٌ يسبُّ الله في آباد الدهر، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى:

إنَّ مَحَلًّا وإنَّ مُرْتَحَلا وإنَّ في السَّفْرِ إذ مَضَوْا مَهَلَا

استأثر اللهُ بالوفاء وبالـ عَدْل ووَلَّى المَلامَةَ الرَّجُلَا[٢]

قال أبو عبيد[٣]: ومن شأن العرب أنْ يذمُّوا الدهرَ عند المصائبِ والنوائب؛ حتى ذكروه في أشعارهم، ونسبوا الأحداثَ إليه. قال عمرو بن قميئة[٤]:

رمتني بناتُ الدَّهر من حيث لا أرى فكيف بمن يُرْمَى وليس برامِ

فلو أنَّها نَبْلٌ إذًا لاتَّقيتُها ولكنني أُرْمَى بغير سهامِ

على الراحتين مرَّةً وعلى العصا أنُوءُ ثلاثًا بعدهنَّ قيامي

ومثلُه كثيرٌ في الشعر. ينسبون ذلك إلى الدهر، ويضيفونَه إليه، واللهُ سبحانه الفاعلُ لا ربَّ سواه.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: علمٌ. و«مِن» زائدة، أي: قالوا ما قالوا شاكِّين.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: ما هم إلَّا يتكلمون بالظَّنّ. وكان المشركونَ أصنافاً؛

---

(١) في غريب الحديث ٢/ ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) ديوان الأعشى ص ٢٨٣. وفيه: ما مضى. بدل: إذ مضوا.

(٣) في غريب الحديث ٢/ ١٤٦ - ١٤٧.

(٤) في ديوانه ص ٤٥-٤٦.

منهم هؤلاء، ومنهم من كان يُثْبِتُ الصانعَ وينكر البعث، ومنهم من كان يَشُكُّ في البعث ولا يَقْطعُ بإنكاره.

وحَدَث في الإسلام أقوامٌ ليس يمكنهم إنكارُ البعث خوفًا من المسلمين؛ فيتأوَّلون ويرون القيامةَ موتَ البدن، ويرون الثوابَ والعقابَ إلى خيالاتٍ تَقعُ للأرواح بزعمهم، فشرُّ هؤلاء أضرُّ من شرِّ جميع الكفار؛ لأنَّ هؤلاء يُلبِّسونَ على الحقّ، ويُغتَرُّ بتلبيسهم الظاهر. والمشركُ المجاهرُ بشركه يحذرُه المسلم.

وقيل: نموتُ وتَحيا آثارُنا؛ فهذه حياةُ الذكر. وقيل: أشاروا إلى التناسخ، أي: يموتُ الرَّجل فتجعل روحه في مواتٍ فتحيا به.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ أي: وإذ تُقرأ على هؤلاء المشركين آياتُنا المنزَّلةُ في جواز البعث، لم يكنْ ثَمَّ دَفْعٌ.

﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ «حُجَّتَهُمْ» خبرُ كان، والاسم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ الموتى؛ نسألهم عن صدق ما تقولون؛ فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ يعني: بعد كونكم نُطَفًا أمواتًا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ كما أحياكم في الدنيا. ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الله يعيدُهم كما بدأهم.

الزمخشريّ: فإن قلتَ: لم سمَّى قولَهم حجةً، وليس بحجة؟ قلت: لأنَّهم أدْلَوْا به كما يُدْلي المحتجُّ بحجَّته، وساقوه مساقَها، فسُمِّيت حجةً على سبيل التَّهكُّم. أو لأنَّه في حسبانهم وتقديرهم حجَّةٌ. أو لأنه في أسلوب قولهم(١):

تَحِيَّةُ بينِهم ضَرْبٌ وَجِيعُ(٢)

(١) في النسخ عدا (ظ): قوله. والمثبت موافق للكشاف.

(٢) عجز بيت لعمرو بن معدي كرب، وسلف ٣/ ٣٨٩.

كأنَّه قيل: ما كان حجَّتَهم إلَّا ما ليس بحُجَّة. والمراد نفيُ أنْ تكون لهم حجَّةٌ الْبتَّةَ. فإنْ قلتَ: كيف وقع قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ جواباً [لقولهم]: «ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ»؟ قلتُ: لمَّا أنكروا البعثَ، وكذَّبوا الرسلَ، وحسبوا أنَّ ما قالوه قولٌ مُبكِّتٌ[1]، أُلزِموا ما هم مُقِرُّون به من أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الذي يحييهم ثم يميتهم، وضُمَّ إلى إلزام ذلك إلزامُ ما هو واجبُ الإقرارُ به إنْ أنصفوا وأصغَوْا إلى داعي الحقِّ، وهو جَمْعُهم إلى[2] يوم القيامة، ومن كان قادراً على ذلك، كان قادراً على الإتيان بآبائهم، وكان أهونَ شيءٍ عليه[3].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلْقًا ومُلْكًا.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ «يَوْمَ» الأوَّل منصوبٌ بـ«يَخْسَرُ»، و«يَوْمَئِذٍ» تكريرٌ للتأكيد[4] أو بدل. وقيل: إنَّ التقدير: وله الملكُ يوم تقوم السَّاعة. والعاملُ في «يَوْمِئِذٍ»: «يَخْسَر»، ومفعول «يَخسَرُ» محذوف؛ والمعنى: يخسرون منازلَهم في الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: من هول ذلك اليوم. والأُمَّة هنا: أهلُ كلِّ ملَّة. وفي الجاثية تأويلاتٌ خمس.

---

(١) التبكيت: الغَلَبة بالحُجَّة. القاموس (بكت).

(٢) قوله: إلى. ليس في (د) و(م).

(٣) الكشاف ٣/ ٥١٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٣.

الأوَّل: قال مجاهد: مستوفِزة. وقال سفيان: المستوفز الذي لا يُصيب الأرضَ منه إلَّا ركبتاه وأطرافُ أنامله. الضَّحَّاك: ذلك عند الحساب.

الثاني: مجتمعة؛ قاله ابن عباس. الفرَّاء: المعنى: وترى أهلَ كلِّ دينٍ مجتمعين.

الثالث: متميِّزة؛ قاله عكرمة.

الرابع: الرابع: خاضعة، بلغة قريش؛ قاله مُؤَرِّج.

الخامس: باركة على الرُّكَب؛ قاله الحسن(١).

والجَثْوُ: الجلوسُ على الركب. جثا على ركبتيه يَجْثُو ويجثي جُثُوًّا وجُثِيًّا؛ على فُعول فيهما، وقد مضى في «مريم»(٢). وأصل الجَثْوَة: الجماعةُ من كلِّ شيءٍ. قال طَرَفةُ يصف قبرين:

ترى جُثْوَتَيْنِ من ترابٍ عليهما ... صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنَضَّدِ(٣)

ثم قيل: هو خاصٌّ بالكفار؛ قاله يحيى بن سلَّام. وقيل: إنَّه عامٌّ للمؤمن والكافر انتظارًا للحساب(٤).

وقد رَوى سفيانُ بن عيينة عن عمروٍ عن عبد الله بن باباه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كأني أراكم بالكَوْم جاثينَ دون جهنم». ذكره الماورديُّ(٥).

وقال سلمان: إنَّ في يوم القيامة لساعةً هي عشرُ سنينَ يخِرُّ الناسُ فيها جُثاةً على

---

(١) النكت والعيون ٥/٢٦٧ عدا قول الضحاك والفراء. وأخرج قول الضحاك الطبريُّ ٢١/١٠١، وقولُ الفراء في معاني القرآن ٣/٤٨.

(٢) ١٣/٤٨٧.

(٣) ديوان طرفة بن العبد ص٣٣، وسلف ١٣/٤٨٨.

(٤) النكت والعيون ٥/٢٦٧.

(٥) في النكت والعيون ٥/٢٦٧. والحديث أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٢١٣، وابن أبي حاتم ١٠/٣٢٩٢ (١٨٥٤١)، وأبو نعيم في الحلية ٧/٢٩٩، عمرو: هو ابن دينار. قال ابن حجر في الفتح ١١/٤٠٥: أخرجه البيهقي في البعث من مرسل عبد الله بن باباه بسند رجاله ثقات رفعه. اهـ. والكوم: بالفتح: المواضع المُشرِفة، واحدها: كَومة. النهاية (كوم).

رُكَبهم، حتى إنَّ إبراهيمَ عليه السلام لَيُنادي: لا أسألُكَ اليومَ إلَّا نفسي[١].

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ قال يحيى بنُ سلَّام: إلى حسابها. وقيل: إلى كتابها الذي كان يُستنسخُ لها فيه ما عملتْ من خيرٍ وشرّ؛ قاله مقاتل. وهو معنى قول مجاهد[٢]. وقيل: «كِتابهَا»: ما كتبت الملائكةُ عليها[٣]. وقيل: كتابها المنزَّل عليها لِينظر هل عملوا بما فيه[٤]. وقيل: الكتابُ ها هنا اللوحُ المحفوظ[٥]. وقرأ يعقوب الحضرميّ: «كُلَّ أُمَّةٍ» بالنصب على البدل من «كُلّ» الأُولى لِمَا في الثانية من الإيضاح الذي ليس في الأولى؛ إذ ليس في جُثوّها شيءٌ من حال شرح الجُثوّ كما في الثانية من ذكر السبب الداعي إليه، وهو استدعاؤُها إلى كتابها. وقيل: انتصبَ بإعمال «تَرىَ» مضمراً[٦]. والرفعُ على الابتداء. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خيرٍ أو شرّ.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ قيل: من قول الله لهم. وقيل: من قول الملائكة.

﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يشهد. وهو استعارة؛ يقال: نَطقَ الكتابُ بكذا، أي: بَيَّن. وقيل: إنَّهم يقرؤونه، فيُذكِّرهُم الكتابُ ما عملوا؛ فكأنَّه ينطق عليهم[٧]؛ دليلُه قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. وفي «المؤمنين»: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الآية: ٦٢]،

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ١٠١.

(٢) هو قول الكلبي، وليس بقول مقاتل ولا مجاهد. كما في النكت والعيون ٥/ ٢٦٩. وقول مقاتل ومجاهد فيه في تفسير الآية التي بعدها. والله أعلم.

(٣) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٨٩.

(٤) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٦٨ ونسبه للجاحظ.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٦١.

(٦) ينظر مجمع البيان ٢٥/ ١٣٧، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٢، وهو من العشرة.

(٧) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٠٥.

وقد تقدَّم[١].

و«يَنْطِقُ» في موضع الحال من الكتاب، أو من ذا، أو خبرٌ ثانٍ لذا، أو يكون «كِتَابُنَا» بدلاً من «هَذَا»، و«يَنْطِقُ» الخبر[٢].

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نأمرُ بنسخ ما كنتم تعملون.

قال عليٌّ ﷺ: إنَّ لِلَّه ملائكةً ينزلون كلَّ يومٍ بشيءٍ يكتبون فيه أعمالَ بني آدم[٣].

وقال ابن عباس: إنَّ الله وكَّل ملائكةً مطهَّرين، فينسخون من أمِّ الكتاب في رمضانَ كلَّ ما يكون من أعمال بني آدم، فيُعارضون حَفَظةَ الله على العباد كلَّ خميس، فيجدون ما جاء به الحفظةُ من أعمال العباد موافقًا لما في كتابهم الذي استنسخوا من ذلك الكتاب، لا زيادةَ فيه ولا نقصان[٤]. قال ابن عباس: وهل يكون النَّسخُ إلَّا من كتاب[٥].

الحسن: نستنسخُ ما كتبته الحفظة على بني آدم؛ لأنَّ الحفَظةَ تَرفعُ إلى الخَزَنة صحائفَ الأعمال[٦].

وقيل: تَحمل الحفظةُ كلَّ يومٍ ما كتبوا على العبد، ثمَّ إذا عادوا إلى مكانهم نُسِخَ[٧] منه الحسناتُ والسيئات؛ ولا تُحَوَّلُ المباحاتُ إلى النسخة الثانية.

وقيل: إنَّ الملائكةَ إذا رفعتْ أعمالَ العباد إلى الله عزَّ وجلَّ، أمر بأنْ يُثْبَتَ عنده منها ما فيه ثوابٌ وعقاب، ويُسقَطَ من جملتها ما لا ثواب فيه ولا عقاب[٨].

---

(١) ١٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨ و١٥/ ٦٠.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٣.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ١٠٥.

(٤) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٢٧ من رواية الضحاك عن ابن عباس.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ١٠٥.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٦٨.

(٧) في (د) و(ظ): نسخوا.

(٨) معاني القرآن للفراء ٣/ ٤٨ - ٤٩.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: الجنَّة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فيقال لهم ذلك، وهو استفهامُ توبيخ. ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن قبولها. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين تكسِبون المعاصي. يقال: فلانٌ جريمةُ أهله. إذا كان كاسِبَهم[١]؛ فالمجرم: من أكسبَ نفسَه المعاصي. وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥] فالمجرمُ ضدُّ المسلم، فهو المذنبُ بالكفر إذاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: البعث كائن. ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وقرأ حمزةُ: «وَالسَّاعَةَ» بالنصب عطفًا على «وَعْدَ». الباقون بالرفع[٢] على الابتداء، أو العطف على موضع «إِنَّ وَعْدَ اللهِ». ولا يحسُنُ على الضمير الذي في المصدر؛ لأنَّه غيرُ موكَّد، والضميرُ المرفوع إنَّما يُعطَفُ عليه بغير تأكيدٍ في الشعر[٣].

﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ هل هي حقٌّ أم باطل؟!

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ تقديره عند المبرِّد: إنْ نحن إلا نظنُّ ظنًّا. وقيل: التقدير: إنْ نظنُّ إلَّا أنَّكم تظنُّون ظنًّا[٤]. وقيل: أي: وقلتم: إنْ نظنُّ إلا ظنًّا.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أنَّ الساعةَ آتيةٌ.

---

(١) الصحاح (جرم).

(٢) السبعة ص ٥٩٥، والتيسير ص ١٩٩.

(٣) الكلام بنحوه في الحجة ٦/ ١٧٩ - ١٨٠.

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٣.

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: ظَهر لهم جزاءُ سيئاتِ ما عملوا. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل بهم وأحاط ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ أي: نتركُكُم في النار كما تركْتُم لقاءَ يومِكم هذا، أي: تركتم العمل له. ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: مسكنُكم ومستقرُّكم. ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾: مَنْ ينصرُكم.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن ﴿هُزُوًا﴾: لعباً. ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعَتْكُم بأباطيلها وزخارفها؛ فظننتُم أنْ ليس ثَمَّ غيرُها، وأنْ لا بعث.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: يُسترْضَوْن. وقد تقدَّم[١].

وقرأ حمزةُ والكسائيّ: «فاليوم لا يخرجون» بفتح الياء وضمِّ الراء[٢]؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]. الباقون بضمِّ الياء وفتح الراء؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ [النساء: ٧٥]. ونحوه[٣].

---

(١) ١٢/٤٠٧ - ٤٠٨.

(٢) السبعة ص ٥٩٥، والتيسير ص ١٧٥.

(٣) الحجة للفارسي ٦/١٧٩.

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قرأ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصِن «رَبُّ السمٰوات وربُّ الأرض ربُّ العالمين» بالرفع فيها كلِّها على معنى: هو رَبُّ[(١)].

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: العَظَمَةُ والجلالُ والبقاءُ والسلطانُ والقدرةُ والكمال ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[(٢)].

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٩٠، وذكر القراءة فيه عن ابن محيصن، وهي قراءة شاذة.

(٢) بعدها في (د) و(م): والله أعلم. ختم تفسير سورة الجاثية والحمد لله.

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

مَكِّيَّةٌ، وهي سبعٌ أو سِتٌّ وثلاثون آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١ ـ ٢) ـ ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إنْ جَعلْت ﴿حمٓ﴾ مُبتدأً خبرُهُ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ احتجتَ إلى إضمارِ مثلِ: تنزيلُ حم[1]، وإن جَعلْتَها تَعديدًا للحُروفِ كان ﴿تَنزِيلُ﴾ مُبتدأً خبرُه: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

وقيل: ﴿حمٓ﴾ مُقسَمٌ به و﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ صِفتُه، وجوابُ القسمِ:

(٣ ـ ٤) ـ ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو يحتملُ أن يكونَ على ظاهرِه، وأن يكونَ المعنى: إنَّ في خلقِ السمواتِ؛ لقولِه: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾.

ولا[2] يَحْسُنُ عطفُ (ما) على الضَّميرِ المجرورِ، بل عطفُه على المضافِ إليه بأحدِ الاحتمالَينِ، فإنَّ بثَّهُ وتَنوُّعَهُ واستجماعَهُ لِمَا به يتمُّ مَعاشُه إلى غيرِ ذلك دلائلُ على وجودِ الصَّانعِ المُختارِ.

---

(١) يعني تنزيل هذه السورة كتنزيل سائر القرآن، فيكون في قوله ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ دلالةٌ على وجه الشبه، فكونه من الله دل على أنه حق وصدق وصواب، وكونه من العزيز دل على أنه معجزٌ يَغلب ولا يُغلَب، وكونه من الحكيم دل على أنه مشتمل على الحكم البالغة، وعلى أنه محكم في نفسه ينسخ ولا يُنسخ، انظر: «فتوح الغيب» (١٤/ ٢٣١).

(٢) في نسخة الفاروقي: «إذ لا» وفي الهامش: في نسخة: «ولا».

﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ محمولٌ على محلِّ (إنَّ) واسمِها.

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ ويعقوبُ بالنَّصبِ حملًا على الاسمِ[١].

(٥) ـ ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ﴾ مِن مطرٍ، وسمَّاهُ رزقًا لأنَّه سببُهُ.

﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ يُبسِها ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ باختلافِ جِهاتِها وأحوالِها.

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿وتصريفِ الرِّيحِ﴾[٢].

﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ فيه القراءتانِ[٣]، ويلزَمُهُما العطفُ على عاملَين (في) والابتداء، أو (إنَّ)، إلَّا أنْ يُضمرَ (في) أو يُنصبَ (آياتٍ) على الاختصاصِ، أو تُرفعَ بإضمارِ (هي).

ولعلَّ اختلافَ الفواصلِ الثَّلاثِ لاختلافِ الآياتِ في الدِّقَّةِ والظُّهورِ.

(٦) ـ ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: تلكَ الآياتُ دَلائِلُه ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ﴾ حالٌ عامِلُها معنى الإشارةِ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُلتَبسينَ به، أو مُلتبسةً به.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: بعدَ آياتِ اللهِ، وتقديمُ اسمِ اللهِ للمُبالغةِ والتَّعظيمِ كما في قولِك: أعجبَني زيدٌ وكَرَمُه، أو بعدَ حَديثِ اللهِ وهو القرآنُ لقَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وآياتُه دلائلُه المَتلوَّةُ أو القرآنُ، والعَطفُ لتَغايُرِ الوصفينِ.

وقرأ الحِجازيَّانِ وحَفصٌ وأبو عمرٍو ورَوْحٌ: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بالياءِ[٤]؛ ليُوافِقَ ما قبلَهُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٩٨)، و«النشر» (٢/ ٣٧١).

(٢) وقراءة الباقين بالجمع، انظر: «السبعة» (ص: ١٧٢ ـ ١٧٣)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

(٣) في نسخة الخيالي: «قراءتان»، وقد تقدمتا.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٩٨)، و«النشر» (٢/ ٣٧١ ـ ٣٧٢).

(٧) ـ ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذَّابٍ ﴿أَثِيمٖ﴾ كثيرِ الآثامِ.

(٨) ـ ﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ﴾ يقيمُ على كفرِه ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ عَنِ الإيمانِ بالآياتِ، و(ثمَّ) لاستبعادِ الإصرارِ بعدَ سَماعِ الآياتِ كقولِه:

يَرَى غَمَـرَاتِ المَـوْتِ ثُـمَّ يَزُورُهَا[١]

﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ أي: (كأنَّهُ) فخُفِّفَ وحُذِفَ ضَميرُ الشَّأنِ، والجملةُ في موقعِ[٢] الحالِ، أي: يُصِرُّ مثلَ غيرِ السَّامعِ.

﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ على إصرارِه، والبشارةُ على الأصلِ، أو التَّهكُّمِ.

(٩ ـ ١٠) ـ ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا﴾ وإذا بلغَهُ شيءٌ مِن آياتِنا وعلمَ أنَّه[٣] منها ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ لذلك مِن غيرِ أنْ يرى فيها ما يُناسِبُ الهُزْءَ.

---

(١) البيت لجعفر بن عُلْبَةَ ـ بضم العين وسكون اللام بعدها باء ـ الحارثي. وصدره:

لا يَكشِـفُ الغَمَّـاءَ إلَّا ابْـنُ حُـرَّةٍ

أي: لا يكشف الأمر الشديد عن القوم إلا كريم الطرفين يرى شدائد الحرب ثم يقصدها بسيوفٍ مصقولةٍ غيرَ مفكِّرٍ فيها. وقال الطيبي في «فتوح الغيب» (١٢/ ٣٥٦): ثمة، وإنّما ذَهَب في «ثم» إلى المجاز وإن احتَمَل الحقيقة؛ لأنَّ الشاعرَ يمدحُ جَرِيئاً لا يبالي بالموتِ ويقتحمُ الأهوالَ، لا أنه يَرى الغَمراتِ ثم يَمكُث زمانًا طويلاً متفكِّرًا ثم يَزُورها؛ لأنَّه ذَمٌّ له، وكذا ما في الآية؛ الأصلُ: ومَن أظلمُ ممَّن ذُكِّر بآيات ربِّه فأعرض عنها، فوَضَع ﴿ثُمَّ﴾ موضعَ الفاءِ لبيان عنادِه وتَمرُّدِه.

وقال هنا: أي: أن زيارة غمرات الموت بعد رؤيته إياها مستبعدة مستنكرة في العقل والعادة، وهو مع ذلك يزورها بعد استيقانه إياها، بالغ في مدحه. ونظيره في الاستبعاد قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ﴾.

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «موضع».

(٣) في نسخة الفاروقي: «وإذا بلغه شيء وعلم آية».

والضَّميرُ لآياتِنا، وفائدتُهُ الإشعارُ بأنَّه إذا سَمِعَ كلامًا وعَلِمَ أنَّه مِن الآياتِ بادرَ إلى الاستهزاءِ بالآياتِ كلِّها ولم يقتصِرْ على ما سَمِعَه.

أو: لشيءٍ لأنَّه بمَعنى الآيةِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ مِن قدَّامِهم لأنَّهم مُتوجِّهُونَ إليها، أو مِن خلفِهم لأنَّه بعدَ آجالِهم.

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم﴾ ولا يدفعُ عَنْهُم ﴿مَّا كَسَبُواْ﴾ مِن الأموالِ والأولادِ ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن عذابِ اللهِ ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: الأصنامَ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يَتحمَّلونَهُ.

(١١) ـ ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ الإشارةُ إلى القُرآنِ، ويدلُّ عليهِ قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٍ﴾.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ ويعقوبُ وحفصٌ برفعِ ﴿أَلِيمٌ﴾[1].

والرِّجزُ: أشَدُّ العَذابِ.

(١٢) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ بأَنْ جعلَهُ أملسَ السَّطحِ يطفو عليهِ ما يتخلخَلُ كالأخشابِ ولا يمنع الغوصَ فيه.

﴿لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ بتَسخيرِهِ وأنتُمْ راكِبُوها.

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتِّجارَةِ والغَوصِ والصَّيدِ وغيرِها.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النِّعمَ[2].

(١٣) ـ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بأَنْ خلقَهَا نافِعةً لَكُم.

---

(١) وقراءة الباقين الجر، انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٨٠)، و«النشر» (٢/ ٣٤٩).

(٢) في نسخة الخيالي: «رب هذه النعمة».

﴿مِنْهُ﴾ حـالٌ مِـن (ما)، أي: سـخَّرَ هذه الأشـياءَ كائنةً منهُ، أو خبـرٌ لِمَحذوفٍ أي: هـي جميعًـا منه، أو لِـ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾، و(سـخَّرَ لَكُم) تكريـرٌ[1] للتَّأكيدِ، أو لِمَا في الأرضِ.

وقُرِئَ: (مِنَّةً) على المفعولِ له، و(مَنُّهُ)[2] على أنَّـه فاعلُ (سخَّر) على الإسنادِ المَجازيِّ، أو خبرُ مَحذوفٍ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صَنائعِهِ.

(١٤) ـ ﴿قُل لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ حُذِفَ المَقولُ لدلالةِ الجوابِ عليه، والمَعنى: قُلْ لهم: اغفِرُوا يَغفِرُوا؛ أي يَعْفُوا ويَصْفَحُوا.

﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لا يَتوقَّعُـونَ وقائِعَـهُ بأَعدائِـه، مِـن قَولِهـم: أَيَّـامُ العـربِ لوَقائِعِهـم، أو لا يأملـونَ[3] الأوقـاتَ التِـي وَقَّتَهـا اللهُ لنَصـرِ المُؤمنيـنَ وثوابِهـم ووَعدَهُـم بهـا.

والآيةُ نَزَلَتْ في عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه شتمَهُ غِفارِيٌّ فهمَّ أن يبطِشَ به[4].

وقيل: إنَّها مَنسوخةٌ بآيةِ القتالِ.

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ عِلَّةٌ للأمرِ، والقومُ هُم المؤمنونَ، أو الكافرونَ، أو كِلاهُما، فيكونُ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ أو التَّحقيرِ أو الشُّيوعِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «تكريراً».

(٢) الأولـى حكيـت عـن ابـن عبـاس وعبـد الله بن عمـرو والجحـدري وعبـد الله بـن عبيد بـن عمير، والثانيـة عـن مسـلمة بـن محـارب، وهمـا فـي «المختصـر فـي شـواذ القـراءات» (ص: ١٣٩)، و«المحتسـب» (٢/ ٢٦٢).

(٣) في نسخة التفتازاني: «ولا يتأملون».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ١٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٤٢)، عن ابن عباس ومقاتل.

والكسبُ: المغفِرَةُ أو الإساءةُ أو ما يَعُمُّهما[١].

وقرأ ابنُ عامرٍ وحمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿لنَجْزِيَ﴾ بالنُّونِ[٢].

وقُرِئَ: (ليُجزَى قومٌ)[٣]، و﴿ليُجْزَى قَوْمًا﴾[٤] أي: ليُجزى الخيرُ أو الشَّرُّ أو الجزاءُ قوماً؛ أعني: ما يُجزى به، لا المصدر؛ فإنَّ الإسنادَ إليهِ سِيَّما مع المفعولِ بهِ ضعيفٌ.

(١٥) ـ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ إذ لها ثوابُ العَملِ وعليها عقابُه.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فيُجازِيكُم على أعمالِكُم.

(١٦) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوراةَ ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ والحكمةَ النَّظريَّةَ والعمليَّةَ، أو فصلَ الخُصوماتِ ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ إذ كَثُرَ فيهم[٥] الأنبياءُ ما لم يَكْثُر في غيرِهم.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مما أحلَّ اللهُ مِن اللَّذائذِ ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حيثُ آتيناهُم ما لم نُؤتِ[٦] غيرَهُم.

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: وقوله: «والكسب» إلخ هو أيضاً لف ونشر، فإذا أريد بالقوم المؤمنون فكسبهم المجازون عليه مغفرتهم للناس وتجاوزهم عنهم لا مغفرة الله حتى يقال فيه مضاف مقدر، وهو مثل أو تجوز بجعلها كسباً كما توهم، والمغفرة: المتاركة، لا إسقاط الحق.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٤ ـ ٥٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

(٣) انظر: «الكشاف» (٨/ ٢١٥) بدون نسبة.

(٤) وهي قراءة أبي جعفر، انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٢).

(٥) في نسخة الخيالي: «منهم».

(٦) في نسخة التفتازاني: «يؤت».

(١٧) - ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ أدلَّةً في أمرِ الدِّينِ، ويندرجُ فيها المعجزاتُ. وقيل: آياتٍ مِن أمرِ النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ مبيِّنةً لصدقِه.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ في ذلك الأمرِ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقيقةِ الحالِ ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ عداوةً وحَسَدًا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمؤاخذةِ والمُجازاةِ.

(١٨) - ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ ﴾ على[1] طريقةٍ ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أمرِ الدِّينِ.

﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ فاتَّبِعْ شَريعتَكَ الثَّابتةَ بالحُجَجِ.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ آراءَ الجُهَّالِ التابعةَ للشَّهواتِ، وهم رُؤساءُ قُريشٍ قالوا له: ارجِعْ إلى دينِ آبائك.

(١٩) - ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ممَّا أرادَ بكَ.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إذ الجنسيَّةُ عِلَّةُ الانضمامِ[2]، فلا تُوالِهم باتِّباعِ أهوائِهم.

﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فوالِهِ بالتُّقى واتِّباعِ الشَّريعةِ.

(٢٠) - ﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآنُ، أو اتِّباعُ الشَّريعةُ ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ بيِّناتٌ تُبصِّرُهم وجهَ الفلاحِ ﴿وَهُدًى﴾ مِن الضَّلالةِ[3] ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ونعمةٌ مِن اللهِ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يطلبونَ اليقينَ.

(٢١) - ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ﴿أَمْ﴾ مُنقَطِعَةٌ، ومَعنى الهمزةِ فيها إنكارُ الحِسْبانِ، والاجتراحُ: الاكتسابُ، ومنه الجارحةُ.

---

(١) «على» من نسخة التفتازاني والطبلاوي.

(٢) في نسخة الخيالي: «للانضمام»، وفي نسخة الطبلاوي: «الضمّ».

(٣) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «الضلال».

﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ أن نُصيِّرَهُم ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مثلَهم، وهو ثاني مَفعُولَيْ (نجعلُ)، وقولُه: ﴿سواءٌ مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بدلٌ منه إن كانَ الضَّميرُ للمَوصولِ الأوَّلِ لأنَّ المُماثلةَ فيه، إذ المَعنى إنكارُ أَنْ تكونَ حَياتُهُم ومَماتُهُم سِيَّينِ في البهجةِ والكرامةِ كمَا هو للمُؤمنينَ.

ويدلُّ عليه قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وحفصٍ ﴿سَوَآءً﴾[1] بالنَّصبِ على البدلِ أو الحالِ مِن الضَّميرِ في الكافِ، أو المفعوليَّةِ والكافُ حالٌ.

وإن كانَ للثَّاني فحَالٌ منه أو استئنافٌ يبيِّنُ المُقتَضِيَ للإنكارِ.

وإن كان لهما فبدلٌ أو حالٌ مِن الثَّاني، وضميرُ الأوَّلِ، والمَعنى: إنكارُ أن يَستوُوا بعدَ المماتِ في الكرامةِ أو تركِ المؤاخذةِ كما استَوَوْا في الرِّزقِ والصِّحَّةِ في الحياةِ، أو استئنافٌ مُقرِّرٌ لتَساوِي مَحْيَا كلِّ صنفٍ ومماتِه في الهُدى والضَّلالِ.

وقُرِئَ: (مَمَاتَهم) بالنَّصبِ[2] على أنَّ مَحْيَاهم ومماتَهم ظرفانِ[3]، كـ: مَقْدَمَ الحاجِّ.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ساءَ حكمُهُم هذا، أو بئسَ شَيْئًا حكموا به ذلك.

(٢٢) - ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ كأنَّه دليلٌ على الحكمِ السَّابقِ مِن حيثُ إنَّ خلقَ ذلك بالحقِّ المُقتَضِي للعدلِ يَستَدْعِي انتصارَ المظلومِ مِن الظَّالمِ، أو التَّفاوُتَ بينَ المُسيءِ والمُحسنِ، وإذا لم يَكُن في المَحْيَا كان بعدَ المَماتِ.

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطفٌ على ﴿بِالْحَقِّ﴾ لأنَّه في مَعنى العِلَّةِ، أو على عِلَّةٍ مَحذوفَةٍ مثلِ: ليدلَّ بها على قُدرَتِه، أو ليعدلَ ولِتُجزَى.

---

(١) والباقون بالرفع، انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٩) عن الأعمش.

(٣) قوله: «ظرفان» يعني سواء حالهم وقت حياتهم ومماتهم.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصِ ثوابٍ وتضعيفِ عذابٍ[١]، وتسمِيَةُ ذلك ظلمًا ـ ولو فعلَهُ اللهُ ـ لم يَكُن مِنهُ ظُلمًا؛ لأنَّه لو فعلَهُ غيرُهُ لكانَ ظُلْمًا كالابتلاءِ والاختبارِ[٢].

(٢٣) ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ﴾ تركَ مُتابَعَةَ الهُدى إلى مُطاوعَةِ الهَوى فكأنَّه يَعبُدُه.

وقُرِئَ: (آلهةً هواهُ)[٣] لأنَّه كان أحدُهُم يستحسِنُ حَجَرًا فيعبدُهُ فإذا رأى أحسنَ مِنه رفضَهُ إليه.

﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ وخذلَه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالِمًا بضَلالِهِ وفسادِ جوهرِ رُوحِه.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يُبالي بالمواعظِ ولا يتفكَّرُ في الآياتِ.

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فلا يَنظرُ بعينِ الاستبصارِ والاعتبارِ.

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ ﴿غَشْوَةً﴾[٤].

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ﴾ مِن بعدِ إضلالِه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقُرِئَ: (تَتذكَّرونَ)[٥].

(٢٤) ـ ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ﴾ ما الحياةُ، أو الحالُ ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ التي نحنُ فيها.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: نكونُ أمواتًا نُطَفًا وما قبلَها ونحيا بعدَ ذلك، أو نموتُ

---

(١) في نسخة الخيالي: «عقاب».

(٢) انظر: «تفسير الرازي» (٢٧/ ٦٧٧).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٩) عن عبد الرحمن الأعرج، وفيه أيضاً عن أبي جعفر: (إلهةً) بالإفراد، وذكرهما «الكشاف» (٨/ ٢١٩)، وأبو حيان في «البحر» (١٩/ ١٧٩).

(٤) بفتح الغين وإسكان الشين، والباقون: ﴿غِشاوةً﴾ بكسر الغين وفتح الشين وألف بعدها. انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٩٨).

(٥) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٨٧)، و«البحر» (١٩/ ١٨٠)، عن الأعمش.

بأَنفُسِنَا ونحيا ببقاءِ أولادِنَا، أو يموتُ بَعضُنَا ويحيا بعضٌ، أو يصيبُنَا الموتُ والحياةُ فيها وليسَ وراءَ ذلك حياةٌ، ويحتمَلُ أنَّهُم أرادوا به التَّناسُخَ فإنَّه عقيدةُ أكثرِ عَبَدَةِ الأوثانِ.

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ إلا مرورُ الزَّمانِ، وهو في الأصلِ مُدَّةُ بَقاءِ العالَمِ؛ مِن دَهَرَهُ: إذا غلبَهُ.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني نسبةَ الحوادثِ إلى حركاتِ الأفلاكِ وما يَتعلَّقُ بها على الاستقلالِ؛ أو إنكارِ البعثِ، أو كِلَيْهِما.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ إذ لا دليلَ لَهُم عليهِ، وإنَّما قالوه[1] بناءً على التَّقليدِ والإنكارِ لِمَا لم يُحِسُّوا به.

(٢٥) ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدَّلالةِ على ما يُخالِفُ مُعتقدَهُم، أو مبيِّناتٍ لهم.

﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ ما كانَ لهم مُتشبَّثٌ يُعارِضُونَها به ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وإنَّما سمَّاه[2] حُجَّةً على حُسبانِهم ومَساقِهم، أو على أسلوبِ قَولِهم:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[3]

---

(١) في نسخة الفاروقي جاء الكلام فيها كالتالي: «من دهره إذا غلبه؛ يعني: نسبة الحوادث إلى حركات الأفلاك وما يتعلق بها على الاستقلال أو إنكار البعث أو كليهما ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ إذ لا دليل لهم عليه ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ وإنما قالوه».

(٢) في نسخة التفتازاني: «سُمي».

(٣) عجز بيت لعمرو بن معدي كرب. انظر: «الكتاب» (٣/ ٥٠)، و«النوادر» لأبي زيد (ص: ٤٢٨)، و«الخزانة» (٩/ ٢٦٥)، وقال البغدادي: ولم أره في شعره. وقد تقدم الاستشهاد به غير مرة.

فإنَّه لا يلزمُ مِن عدمِ حُصولِ الشَّيءِ حالًا امتناعُهُ مُطلقًا.

(٢٦) - ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ على ما دلَّتْ عليه الحججُ.

﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فإنَّ مَن قَـدَرَ على الإبداءِ قَدَرَ على الإعادةِ.

والحكمةُ اقتَضَت الجمعَ للمُجازاةِ على مـا قـرَّرَ[1] مـرارًا، والوعدُ المصدَّقُ بالآياتِ دلَّ على وُقوعِها، وإذا كانَ كذلك أمكنَ الإتيانُ بآبائِهم، لكنَّ الحكمةَ اقتَضَتْ أن يُعادوا يومَ الجمعِ للجَزاءِ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقِلَّةِ تَفكُّرِهِم وقُصورِ نَظرِهِم على ما يُحِسُّونَه.

(٢٧) - ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تعميمٌ للقُدرَةِ بعدَ تَخصيصِها.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: يخسرُ يومَ تَقومُ، و(يومَئذٍ) بدلٌ مِنه.

(٢٨) - ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ مُجتمعةً، مِن الجُثْوَةِ وهـي الجماعةُ، أو بـاركةً مُستوفِزَةً على الرُّكَبِ.

وقُرِئَ: (جاذِيَةً)[2] أي جالسَةً على أطرافِ الأصابعِ[3] لاستيفازِهِم.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ صحيفةِ أعمالِها.

وقرأ يعقوبُ: ﴿كلَّ﴾[4] على أنَّه بدلُ الأوَّلِ، و﴿تُدْعَىٰٓ﴾ صفةٌ، أو مفعولٌ ثانٍ.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ محمولٌ على القَوْلِ.

(٢٩) - ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ أضافَ صَحائفَ أعمالِهم إلـى نَفسِهِ لأنَّه أَمَرَ الكَتَبَةَ أنْ يكتُبوا فيها أعمالَهُم.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «على ما مر».

(٢) انظر: «الكشاف» (٨/ ٢٢٢)، و«البحر» (١٩/ ١٨٣).

(٣) في نسخة الفاروقي: «أصابعهم».

(٤) انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٢).

﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ يشهَدُ عليكم بما عَمِلْتُم بلا زِيادةٍ ونُقصانٍ.

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ نَستكْتِبُ الملائكةَ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أعمالَكُم.

(٣٠) - ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ التي مِن جُمْلَتِها الجنَّةُ.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظَّاهرُ لخلوصِهِ عَن الشَّوائبِ.

(٣١) - ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فيقالُ لهم: أَلَمْ تأتِكُم رُسُلِي فلَمْ[1] تكُن آياتي تُتْلَى عليكُم؟! فحُذِفَ القولُ والمعطوفُ عليه، اكتفاءً بالمقصودِ واستغناءً بالقرينةِ.

﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمانِ بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ عادَتُكم[2] الإجرامُ.

(٣٢) - ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ يحتملُ الموعودَ والمصدرَ ﴿حَقٌّ﴾ كائنٌ هو، أو مُتعلَّقُه لا محالةَ.

﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ إفرادٌ للمَقصودِ، وقرأَ حمزةُ بالنَّصبِ[3] عَطْفًا على اسمِ (إنَّ).

﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أيُّ شيءٍ السَّاعةُ استِغْرابًا لها.

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أصلُه: نَظُنُّ ظَنًّا، فأُدخلَ حرفا النَّفيِ والاستثناءِ لإثباتِ الظَّنِّ ونَفْيِ ما عداهُ كأنَّه قال: ما نحنُ إلَّا نَظُنُّ ظَنًّا، أو لنَفْيِ ظَنِّهم فيما سِوَى ذلك مُبالغَةً، ثمَّ أكَّده بقولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي: لإمكانِه.

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «أفلم».

(٢) في نسخة الخيالي: «عادتهم» وفي نسخة الفاروقي والطبلاوي: «قوماً عادتهم».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٩٩).

ولعلَّ ذلك قولُ بَعضِهِم، تحيَّرُوا بينَ ما سَمِعُوا مِن آبائهِم وما تُلِيَت عليهِم مِن الآياتِ في أمرِ السَّاعةِ.

(٣٣) ـ ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ ظَهَرَ لَهُم ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ على ما كانَتْ عليه؛ بأَنْ عرَفُوا قُبحَها وعاينوا وَخامةَ عاقِبَتِها أو جزائِها[1].

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهو الجَزاءُ.

(٣٤) ـ ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ نترُكُكُم في العذابِ تركَ ما يُنْسَى.

﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ كما ترَكْتُم عُدَّتَهُ ولم تُبالُوا به. وإضافةُ اللِّقاءِ إلى اليومِ إضافةُ المصدرِ إلى ظرفِه.

﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يخلِّصونكُم مِنها.

(٣٥) ـ ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ استهزَأْتُم بها ولم تتفكَّرُوا فيها.

﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فحَسِبْتُم أنْ لا حياةَ سِوَاها.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ بفتحِ الياءِ وضمِّ الرَّاءِ[2].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يُطلَبُ منهم أن يُعتِبُوا ربَّهم؛ أي: يُرضُوهُ لِفَواتِ أَوانِه.

(٣٦) ـ ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إذ الكلُّ نِعمَةٌ منه، دالٌّ[3] على كمالِ قُدرَتِه.

(٣٧) ـ ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إذ ظهرَ فيها آثارُها.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «أو جزاءَها» ولكلٍّ وجه.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٥٩٥).

(٣) المثبت من نسخة الطبلاوي وعليه شرح الخفاجي في «حاشيته»، وفي باقي النسخ: «الدالُّ»، وعليه شرح في «حاشية الأنصاري» (٥/ ١٥٣) فقال: «الدال: خبر بعد خبر».

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الـذي لا يُغلَبُ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما قدَّرَ وقَضـى، فاحمَدُوهُ وكبِّرُوهُ وأَطيعُوا لهُ.

عَـن النَّبـيِّ ﷺ: «مَـن قـرأ ﴿حمٓ﴾ الجاثيـةَ سـترَ اللهُ عورتَهُ وسـكَّنَ رَوعتَـهُ يومَ الحسابِ»(١).

***

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٤/ ٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٩٤)، من حديث أبيٍّ رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. انظر: «الفتح السماوي» للبيضاوي (٣/ ٩٩٠).

(٤٥) سورة الجاثية مكية
وآياتها ٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾
وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن
رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

يرشد تعالى خلقه إلى التفكير في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السماوات والأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس والدواب، والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه، وهذا بضيائه، وما أنزل الله تبارك وتعالى من السحاب، من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقاً لأن به يحصل الرزق ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ أي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وتصريف الرياح ﴾ أي جنوباً وشمالاً برية وبحرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج، وقال سبحانه أولاً ﴿ لآيات للمؤمنين ﴾ ثم ﴿ يوقنون ﴾ ثم ﴿ يعقلون ﴾ وهو ترق من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى، وهذه الآيات شبيهة بآية البقرة وهي قوله تعالى: ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ
﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ
مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟

شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَـٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

يقول تعالى ﴿ تلك آيات الله ﴾ يعني القرآن بما فيه من الحجج والبينات ﴿ نتلوها عليك بالحق ﴾ أي متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ ؟ ثم قال تعالى ﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ أفاك في قوله أي كذاب ﴿ أثيم ﴾ في فعله وقلبه كافر بآيات الله، ولهذا قال ﴿ يسمع آيات الله تتلى عليه ﴾ أي تقرأ عليه ﴿ ثم يصرّ ﴾ أي على كفره وجحوده، استكباراً وعناداً ﴿ كأن لم يسمعها ﴾ كأنه ما سمعها ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ أي فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً، ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً ﴾ أي إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به، واتخذه سخرياً وهزواً ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به، ولهذا « نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدوّ مخافة أن يناله العدو »[1]، ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ أي كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة ﴿ ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ﴾ أي لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿ ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ أي ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿ هذا هدى ﴾ يعني القرآن ﴿ والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ وهو المؤلم الموجع، والله سبحانه وتعالى أعلم.

* ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر ﴿ لتجري الفلك ﴾ وهي السفن فيه بأمره تعالى فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أي في المتاجر والمكاسب، ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي على حصول المنافع المجلوبة إليكم، من الأقاليم النائية والآفاق القاصية، ثم قال عزّ وجلّ ﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض ﴾ أي من الكواكب والجبال والبحار والأنهار، الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه، ولهذا قال ﴿ جميعاً منه ﴾ أي من عنده وحده لا شريك له، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾، أي ليصفحوا عنهم، ويتحملوا الأذى منهم، وكان هذا في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك

(١) رواه مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

كالتأليف لهم، ثم لما أصروا على العناد، شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد[١]، وقوله تعالى: ﴿ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون﴾ أي إذا صفحوا عنهم في الدنيا، فإن الله عزّ وجلّ مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾ أي تعودون إليه يوم القيامة، فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل، من إنزال الكتب عليهم، وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات﴾ أي من المآكل والمشارب، ﴿وفضلناهم على العالمين﴾ أي في زمانهم ﴿وآتيناهم بينات من الأمر﴾ أي حججاً وبراهين وأدلة قاطعات، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغياً منهم ﴿إن ربك﴾ يا محمد ﴿يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي سيفصل بينهم بحكمه العدل، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة، أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم، ولهذا قال جلّ وعلا: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها﴾ أي اتبع ما أوحي إليك من ربك وأعرض عن المشركين، وقال جل جلاله ههنا: ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض﴾ أي وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضاً؟ فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً، ﴿والله ولي المتقين﴾ وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، ثم قال عزّ وجلّ: ﴿هذا بصائر للناس﴾ يعني القرآن ﴿وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

(١) هكذا روي عن ابن عباس وقتادة. وقال مجاهد: ﴿لا يرجون أيام الله﴾ أي لا ينالون نعم الله تعالى، يريد لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ولا بلقاء الله.

يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون كما قال في آية أُخرى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات﴾ أي عملوها وكسبوها ﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم﴾؟ أي نساويهم بها في الدنيا والآخرة ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوي بين الأبرار والفجار، فكما لا يجتنى من الشوك العنب، كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار، ذكر محمد بن إسحاق انهم وجدوا حجراً بمكة من أس الكعبة، مكتوب عليه «تعملون السيئات وترجون الحسنات، أجل كما يجنى من الشوك العنب». وعن مسروق أن تميماً الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾(١) ولهذا قال تعالى: ﴿ساء ما يحكمون﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحق﴾ أي بالعدل، ﴿ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾، ثم قال جلّ وعلا: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ أي إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسناً فعله، ومهما رآه قبيحاً تركه، لا يهوى شيئاً إلا عبده، وقوله: ﴿وأضله الله على علم﴾ يحتمل قولين: (**أحدهما**): وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك، (**والآخر**): وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه، والثاني يستلزم الأول ولا ينعكس، ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ أي فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يرى حجة يستضيء بها، ولهذا قال تعالى: ﴿فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾؟ كقوله تعالى: ﴿من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾ أي ما ثَمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد، وتقوله الفلاسفة الدهرية المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا العقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾ قال الله تعالى: ﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾ أي يتوهمون ويتخيلون، فأما الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يقول تعالى يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب ليله ونهاره»، وفي رواية: «لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر»(٢) فقد قال الشافعي وأبو عبيدة في تفسير الحديث: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر، ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى، فكأنهم إنما سبوا الله

(١) أخرجه الطبراني عن أبي الضحى عن مسروق.

(٢) أخرجاه في الصحيحين، ورواه أبو داود والنسائي.

عزّ وجلّ، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال، هذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي إذا بيّن لهم الحق، وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾، أي أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً، قال الله تعالى: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم﴾ أي كما تشاهدون ذلك يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾؟ أي الذي قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى، ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، ﴿ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ أي لا شك فيه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي فلهذا ينكرون المعاد ويستبعدون قيام الأجساد، قال الله تعالى: ﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ أي يرون وقوعه بعيداً، والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً.

۞ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض، والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ أي يوم القيامة ﴿يخسر المبطلون﴾ وهم الكافرون بالله والجاحدون بما أنزله على رسله، من الآيات البينات والدلائل الواضحات، ثم قال تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ أي على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا إذا جيء بجهنم، فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ويقول نفسي نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، وحتى إن عيسى عليه الصلاة والسلام ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسي، لا أسألك مريم التي ولدتني، قال مجاهد: ﴿كل أمة جاثية﴾ أي على الركب، وقال عكرمة: ﴿جاثية﴾ متميزة على ناحيتها، وليس على الركب، والأول أولى لما روي عن عبدالله بن باباه أن رسول الله ﷺ قال: «كأني أراكم جاثين بالكوم دون جهنم»[1]، وقال محمد بن كعب عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً في حديث الصور: فيتميز الناس، وتجثو الأمم، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ وهذا فيه جمع بين القولين، ولا منافاة والله أعلم، وقوله عزّ وجلّ: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ يعني كتاب أعمالها كقوله جلّ جلاله: ﴿ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء﴾، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾، ولهذا قال جلّت عظمته: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ أي يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله جلّ جلاله: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إنا كنا نستنسخ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

ما كنتم تعملون﴾ أي إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم، قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابل الملائكة الذين في ديوان الأعمال على ما بأيدي الكتبة، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، ثم قرأ: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة فقال تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة، وهي الخالصة الموافقة للشرع ﴿فيدخلهم ربهم في رحمته﴾ وهي الجنة، كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء[1] ﴿ذلك هو الفوز المبين﴾ أي البين الواضح، ثم قال تعالى ﴿وأمّا الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم﴾؟ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، أما قرئت عليكم آيات الله تعالى، فاستكبرتم عن اتباعها وأعرضتم عن سماعها، وكنتم قوماً مجرمين في أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟ ﴿وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها﴾ أي إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿قلتم ما ندري ما الساعة﴾ أي لا نعرفها ﴿إن نظن إلا ظناً﴾ أي إن نتوهم وقوعها إلا توهماً أي مرجوحاً، ولهذا قال: ﴿وما نحن بمستيقنين﴾ أي بمتحققين، قال الله تعالى: ﴿وبدا لهم سيئات ما عملوا﴾ أي وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ﴿وحاق بهم﴾ أي أحاط بهم ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ أي من العذاب والنكال، ﴿وقيل اليوم ننساكم﴾ أي نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم، ﴿كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به ﴿ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾، وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الشيخان وأوله: «تحاجّت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا سقط الناس وضعفاؤهم؟ فأوحى الله للجنة أنت رحمتي» ... الخ.

فيقول: بلى يا رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: «فاليوم أنساك كما نسيتني»، قال الله تعالى: ﴿ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً﴾ أي إنما جازيناكم هذا الجزاء، لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرياً تسخرون وتستهزئون بها، ﴿وغرتكم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتكم فاطمأننتم إليها فأصبحتم من الخاسرين، ولهذا قال عزّ وجلّ: ﴿فاليوم لا يخرجون منها﴾ أي من النار، ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي لا يطلب منهم العتبى، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب. ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين قال ﴿فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض﴾ أي المالك لهما وما فيهما، ولهذا قال: ﴿رب العالمين﴾، ثم قال جلّ وعلا: ﴿وله الكبرياء في السماوات والأرض﴾، قال مجاهد: يعني السلطان، أي هو العظيم الممجد الذي كل شيء خاضع لديه فقير إليه، وقد ورد في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري»[1]، وقوله تعالى: ﴿وهو العزيز﴾ أي الذي لا يغالب ولا يمانع، ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، تعالى وتقدس لا إله إلا هو.

[آخر تفسير سورة الجاثية، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة]

* * *

(١) وفي رواية: فمن نازعني فيهما قصمته ولا أبالي. والحديث في صحيح مسلم.

تفسير سورة الجاثية

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) ﴾ .

يُرشد تعالى خلقه إلى التفكر فى آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التى خلق بها السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما فى البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، فى تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر فى وقت الحاجة إليه، وسماه رزقًا؛ لأن به يحصل الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شىء.

وقوله : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ أى: جنوبا وشآما[(١)]، ودبوراً وصبًا، بحرية وبرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقاح، ومنها ما هو غذاء الأرواح، ومنها ما هو عقيم [لا ينتج][(٢)].

وقال أولاً: ﴿ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ[(٣)] ﴾، ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾، ثم﴿يَعْقِلُونَ ﴾، وهو تَرَقٍّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وهذه الآيات شبيهة بآية «البقرة» وهى قوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقد أورد ابن أبى حاتم هاهنا عن وهب بن مُنَبِّه أثراً طويلا غريباً فى خلق الإنسان من الأخلاط الأربعة.

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ

(١) فى ت، أ: «وشمالاً». (٢) زيادة من ت، م،أ. (٣) فى ت، أ: «لقوم يؤمنون» وهو خطأ.

وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١)﴾ .

يقول تعالى: هذه آيات الله ـ يعنى القرآن بما فيه من الحجج والبينات ـ ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أى: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها، فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟! ثم قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أى: أفاك فى قوله كذاب، حلاّف مهين أثيم فى فعله وقيله[(١)] كافر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أى: تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أى: على كفره وجحوده استكباراً وعنادا ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أى: كأنه ما سمعها، ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [أى][(٢)]: فأخبره أن له عند الله يوم القيامة عذابا أليما موجعا.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أى: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذه سخريا وهزوا، ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى: فى مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ ولهذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو[(٣)].

ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده[(٤)] فقال: ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أى: كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة، ﴿وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أى: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: ولا تغنى عنهم الآلهة التي عبدوها من دون لله شيئاً، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ هَذَا هُدًى﴾ يعنى القرآن، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ :وهو المؤلم[(٥)] الموجع.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)﴾ .

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾، وهى السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذى أمر البحر أن يحملها﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أى: فى المتاجر والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾أى: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية.

---

(١) فى ت، أ: «وقلبه».
(٢) زيادة من ت،م.
(٣) صحيح مسلم برقم (١٨٦٩).
(٤) فى أ: «القيامة».
(٥) فى أ: «المقلق».

ثم قال: تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أي: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي: من عنده وحده لا شريك له في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وروى ابن جرير من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ كل شيء هو من الله، وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه، فذلك جميعاً منه، ولا ينازعه فيه المنازعون، واستيقن أنه كذلك.

وقال [(١)] ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن خَلَف العسقلاني، حدثنا الفِرْيانى، عن سفيان، عن الأعمش، عن المِنْهال بن عمرو، عن أبي أراكة قال: سأل رجل عبد الله بن عمرو قال: مم خلق الخلق؟ قال: من النور والنار، والظلمة والثرى. قال: وائت ابن عباس فاسأله. فأتاه فقال له مثل ذلك، فقال: ارجع إليه فسله: مم خلق ذلك كله؟ فرجع إليه فسأله، فتلا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ هذا أثر غريب، وفيه نكارة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي: يصفحوا عنهم ويحملوا [(٢)] الأذى منهم. وهذا كان في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتأليف قلوبهم [(٣)]، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد. هكذا روى عن ابن عباس، وقتادة.

وقال مجاهد [في قوله][(٤)]: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾: لا يبالون [(٥)] نعم الله.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: إذا صفحوا [(٦)] عنهم في الدنيا، فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم [عليه][(٧)]، فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)﴾.

---

(١) في ت: «وروى».
(٢) في أ: «ويحتملوا».
(٣) في ت، م، أ: «كالتأليف لهم».
(٤) زيادة من أ.
(٥) في أ: «ينالون».
(٦) في أ: «أي اصفحوا».
(٧) زيادة من ت، م، أ.

يذكر تعالى ما أنعم به على بنى إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من المآكل والمشارب، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أى: فى زمانهم، ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾ أى: حججا وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت [1] عليهم الحجج ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضا، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أى: اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال هاهنا: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى: وماذا تغنى [2] عنهم ولايتهم لبعضهم بعضا، فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارا ودمارا وهلاكا، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

ثم قال: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يعنى: القرآن﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾ .

يقول تعالى: لا يستوى المؤمنون والكافرون، كما قال: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أى: عملوها وكسبوها﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أى: نساويهم بهم فى الدنيا والآخرة! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾أى: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نُسَاوى بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفى هذه الدار.

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا مُؤمَّل بن إهابَ، حدثنا بُكَير [3] بن عثمان التَّنُوخى، حدثنا الوَضين بن عطاء، عن يزيد بن مَرْثَد الباجى[4]، عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: إن الله بنى دينه على أربعة أركان، فمن صبر عليهن ولم يعمل بهن لقى الله [وهو] [5] من الفاسقين. قيل: وما هن يا أبا ذر؟ قال: يسلم حلال الله لله، وحرام الله لله، وأمر الله لله، ونهى الله لله، لا يؤتمن عليهن إلا الله.

---

(١) فى ت: «فقامت به».
(٢) فى ت: «وما يغنى».
(٣) فى أ: «بكر».
(٤) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى بإسناده».
(٥) زيادة من ت.

قال أبو القاسم ﷺ: «كما أنه لا يجتنى من الشوك [١] العنب، كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار»[٢].

هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد ذكر محمد بن إسحاق فى كتاب «السيرة» أنهم وجدوا حجرا بمكة فى أسِّ الكعبة مكتوب [٣] عليه: تعملون السيئات وترجون الحسنات؟ أجل، كما يجتنى من الشوك العنب[٤].

وقد روى الطبرانى من حديث شعبة، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبى الضحى، عن مسروق[٥]؛ أن تميما الدارى قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وقال[٦]: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أى: بالعدل، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[٧].

ثم قال [تعالى][٨]: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أى: إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسنا فعله، ومهما رآه قبيحا تركه: وهذا قد يستدل به على المعتزلة فى قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين.

وعن مالك فيما روى عنه من التفسير: لا يهوى شيئا إلا عبده.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، يحتمل قولين.

أحدها[٩]: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه. والثانى يستلزم الأول، ولا ينعكس.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أى: فلا يسمع ما ينفعه، ولايعى شيئا يهتدى به، ولا يرى حجة يستضىء بها؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ [١٠] وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾.

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا

---

(١) فى ت: «الشوكة».

(٢) وذكره ابن حجر فى المطالب العالية (٣/ ١٥٤) وعزاه لأبي يعلى، وأظنه فى الكبير، ويزيد بن مرثد الهمدانى روايته عن أبى ذر مرسله. تنبيه: وقع هنا «الباجى» ولم تقع لى هذه النسبة له.

(٣) فى ت، م: «مكتوبًا» وهو الصواب.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩٦).

(٥) فى ت: «وقد روى الطبرانى بسنده». (٦) فى ت، م، أ: «وقوله».

(٧) المعجم الكبير (٢/ ٥٠).

(٨) زيادة من ت. (٩) فى أ: «أحدهما».

(١٠) فى ت، م: «ومن يضلل الله فما له من هاد» وهو خطأ.

مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أى: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولاقيامة وهذا يقوله مشركو[١] العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة [٢]والرجعة، ويقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شىء إلى ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول [٣] وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا[٤]: **﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾**، قال الله تعالى: **﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾**، أى: يتوهمون ويتخيلون.

فأما الحديث الذى أخرجه صاحبا الصحيح، وأبو داود، والنسائى، من رواية سفيان بن عيينة، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذينى ابن آدم؛ يسب الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر، أقلب ليله ونهاره»[٥]. وفى رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»[٦].

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جدا فقال: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا سفيان بن عيينة، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذى يهلكنا، يميتنا ويحيينا، فقال الله فى كتابه: **﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾** » قال: «ويسبون الدهر، فقال الله عز وجل: يؤذينى ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدى الأمر أقلب الليل والنهار»[٧].

وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أحمد بن منصور، عن شُرَيْح بن النعمان، عن ابن عيينة، مثله: ثم روى عن يونس، عن ابن وهب، عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدى الليل والنهار».

وأخرجه[٨] صاحبا الصحيح والنسائى، من حديث يونس بن زيد، به[٩].

وقال محمد بن إسحاق، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله: استقرضت عبدى فلم يعطنى، وسَبّنِى عبدى، يقول: وادهراه. وأنا الدهر»[١٠].

قال الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله، عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»: كانت العرب فى جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا

---

(١) فى أ: «منكرو». (٢) فى أ: «البداوة». (٣) فى ت، أ: «وكابروا العقول».

(٤) فى ت، أ: «قال».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) وسنن أبى داود برقم (٥٢٧٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٨٧).

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٢٤٦).

(٧) تفسير الطبرى (٢٥/ ٩٢).

(٨) فى ت: «أخرجاه» وهو خطأ، والصواب: «أخرجه» ؛حتى لا يجتمع عاملان على معمول واحد.

(٩) صحيح البخارى برقم (٦١٨١) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٨٦).

(١٠) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٥/ ٩٢) من طريق سلمة عن محمد بن إسحاق به، وخالفه يزيد بن هارون، فرواه عن محمد ابن إسحاق، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة ، به، وأخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٤٥٣) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم».

خيبة الدهر. فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله [عز وجل][١]، فكأنهم إنما سبوا، الله عز وجل؛ لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة، فلهذا نُهى [٢] عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذى يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال.

هذا أحسن ما قيل فى تفسيره، وهو المراد، والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية فى عدهم الدهر من الأسماء الحسنى، أخذا من هذا الحديث.

وقوله [٣] تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ[٤] آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أى: إذا استدل عليهم وبين لهم الحق، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها، ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾أى: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقا. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أى: كما تشاهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أى: الذى قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧]، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يعيدكم فى الدنيا حتى تقولوا: ﴿ ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ[٥] ﴾ [التغابن: ٩] ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات: ١٢، ١٣]، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾[هود: ١٠٤]وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾أى: لا شك فيه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧] أى: يرون وقوعه بعيدا، والمؤمنون يرون ذلك سهلا قريبا.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، الحاكم فيهما [٦] فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أى: يوم [٧] القيامة ﴿ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾، وهم الكافرون بالله الجاحدون ما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

وقال ابن أبى حاتم: قدم سفيان الثورى المدينة، فسمع المعافرى [٨] يتكلم ببعض ما يضحك به الناس. فقال له: يا شيخ، أما علمت أن لله يوماً يخسر فيه المبطلون؟ قال: فما زالت تعرف فى المعافرى [٩] حتى لحق بالله ،عز وجل. ذكره ابن أبى حاتم.

---

(١) زيادة من ت،م.
(٢) فى أ: «أنهى».
(٣) فى ت: «وقال».
(٤) فى م: «عليه» وهو خطأ.
(٥) فى ت: «الفصل»وهو خطأ .
(٦) فى م: «فيما».
(٧) فى ت، أ: «تقوم».
(٨، ٩) فى ت، م، أ: «العاضرى».

ثم قال: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أى: على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا [يكون][1] إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل، ويقول: نفسى، نفسى، نفسى، لا أسألك اليوم إلا نفسى، وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسى، لا أسألك [اليوم][2] مريم التى ولدتنى.

قال مجاهد، وكعب الأحبار، والحسن البصرى: ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أى: على الركب. وقال عِكْرِمة: ﴿جَاثِيَةً﴾: متميزة على ناحيتها[3]، وليس على الركب . والأول أولى.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو، عن عبد الله بن باباه[4]؛ أن رسول الله [ﷺ][5] قال: «كأنى أراكم جاثين بالكوم دون جهنم»[6].

وقال إسماعيل بن رافع المدينى[7]، عن محمد بن كعب، عن أبى هريرة، رضي الله عنه، مرفوعا فى حديث الصورة[8]: فيتميز الناس، وتجثو الأمم، وهى التى يقول الله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾[9].

وهذا فيه جمع بين القولين: ولامنافاة، والله أعلم.

وقوله: ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ يعنى: كتاب أعمالها، كقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ ولهذا قال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٣ ـ ١٥].

ثم قال: ﴿هَٰذَا[10] كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ أى: يستحضر[11] جميع أعمالكم من غير زيادة ولانقص[12]، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم.

قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين فى ديوان الأعمال على ما بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ فى كل ليلة قدر، مما كتبه[13] الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا

(١، ٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «ناصيتها».
(٤) فى ت: «وقال ابن أبى حاتم بإسناده». (٥) زيادة من ت.
(٦) ورواه أبو نعيم فى زوائد زهد ابن المبارك برقم (٣٦٠) وأبو نعيم فى الحلية (٧/ ٢٩٩) من طريق سفيان بن عيينة به.
(٧) فى أ: «المدنى». (٨) فى ت، م، أ: «الصور».
(٩) انظر تفسير حديث الصور عند الآية: ٧٣ من سورة الأنعام.
(١٠) فى ت، م، أ: «ولهذا» وهو خطأ.
(١١) فى أ: «سيحضر». (١٢) فى م: «نقصان». (١٣) فى أ: «مما قد كتبه».

نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) ﴾ .

يخبر تعالى عن حكمه فى خلقه يوم القيامة، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحات[1]، وهى الخالصة الموافقة للشرع، ﴿ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، وهى الجنة، كما ثبت فى الصحيح أن الله قال للجنة: «أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء»[2].

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أى: البين الواضح.

ثم قال: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا: أما[3] قرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عند[4] سماعها، ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أى: فى أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب؟

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ أى: إذا قال لكم المؤمنون ذلك، ﴿ قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أى: لا نعرفها، ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا ﴾ أى: إن نتوهم وقوعها إلا توهما، أى مرجوحا[5]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أى: بمتحققين، قال الله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أى: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أى: أحاط بهم ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: من العذاب والنكال، ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ ﴾ أى: نعاملكم معاملة الناسى لكم فى نار جهنم ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أى: فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به، ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟

---

(١) فى ت، أ: «الصالحة».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٠) من حديث أبى هريرة ،رضى الله عنه.

(٣) فى أ: «لما». (٤) فى أ: «عن». (٥) فى أ: «مرجوعًا».

ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتَربَع؟ فيقول: بلى، يارب. فيقول: أفظننت أنك مُلاقيّ؟ فيقول: لا . فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني»[1].

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا، تسخرون وتستهزئون بها، ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتكم فاطمأننتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين؛ ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يطلب منهم العتبى، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب.

ثم لما ذكر حكمه فى المؤمنين والكافرين قال: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ﴾ أي: المالك لهما وما فيهما؛ ولهذا قال: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قال مجاهد: يعنى السلطان. أى: هو العظيم الممجد، الذى كل شىء خاضع لديه فقير إليه. وقد ورد فى الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى[2]: العظمة إزارى، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما أسكنته نارى». ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن أبى إسحاق، عن الأغر أبى مسلم، عن أبى هريرة وأبى سعيد، رضى الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، بنحوه[3].

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أى: الذى لا يغالب ولا يمانع، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو[4].

آخر تفسير سورة الجاثية [ولله الحمد والمنة][5]

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٨) من حديث أبى هريرة ،رضى الله عنه.
(٢) فى ت: «أن الله تعالى يقول».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦٢٠).
(٤) فى أ: «لا إله غيره ولا رب سواه».
(٥) زيادة من ت، م،أ.

سورة الجاثية

مكيّة، وهي سبع أو[1] ستّ وثلاثون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾

﴿حمٓ﴾ الكلام فيه كما مرّ في فاتحة سورة المؤمن، فإن جُعل اسمًا للسورة فمحلّه الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا مسمًّى بـ﴿حمٓ﴾، والإشارة إلى السورة قبل جرَيان ذكرها قد وقفتَ على سِرّه مرارًا. وإن جُعِل مسرودًا على نمَط التعديد فلا حظَّ له مِن الإعراب.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على الأوّل خبر بعد خبر، على أنّه مصدر أُطلِق على المفعول مبالغةً، وعلى الثاني خبر لمبتدأ مضمَر يُلوِّحُ به ما قبله، أي: المؤلَّف مِن جنس ما ذُكر تنزيلُ الكتاب. وقيل: هو خبر لـ﴿حمٓ﴾، أي: المسمّى به تنزيلُ... إلخ. وقد مرّ مِرارًا أنّ الذي يُجعلُ عنوانًا للموضوع حقّه أن يكون قبل ذلك معلومَ الانتساب إليه، وإذ لا عهدَ بالتسمية بَعدُ فحقُّها الإخبارُ بها، وأمّا جعلُه خبرًا له بتقدير المضاف وإبقاءِ "التنزيل" على أصله -أي: تنزيل حم تنزيل الكتاب- فمَع عَرائه عن إفادة فائدة يُعتدّ بها تمحُّل على تمحُّل.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ كما مرّ في صدر سورة الزمر[2] على التفصيل.

وقيل: ﴿حمٓ﴾ مُقسَم به، و﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ صفته، وجواب القسَم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. / وهو على الوجوه المتقدّمة [٨٠و]
كلام مستأنَف مَسوق للتنبيه على الآيات التكوينيّة الآفاقيّة والأنفسيّة.

---

[1] س: وقيل.

[2] الزمر، ١/٣٩.

ومحلّ "الآيات" إمّا أنفس السماوات والأرض، فإنّهما مُنطويتان مِن فنون الآيات على ما يَقْصر عنه البيان، وإمّا خلقُهما، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة، ١٦٤/٢]، وهو الأوفق لقوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أي: مِن نطفة ثمّ مِن علَقةٍ متقلّبة في أطوارٍ مختلفة إلى تمام الخلق، ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ عطفٌ على المضاف، دون المضاف إليه، أي: وفيما ينشره ويفرّقه مِن دابّة.

﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالرفع على أنّه مبتدأ خبره الظرف المقدَّم، والجملةُ معطوفة على ما قبلها مِن الجملة المصدَّرة بـ﴿إِنَّ﴾.[١] وقيل: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ عطفٌ على ما قبلها مِن ﴿ءَايَٰتٍ﴾ باعتبار المحلّ عند مَن يُجوّزه. وقُرئ: "آيَةٌ" بالتوحيد.[٢] وقُرئ: "آياتٍ" بالنصب[٣] عطفًا على ما قبلها مِن اسم ﴿إِنَّ﴾،[٤] والخبرُ هو الخبر، كأنّه قيل: وإنّ في خَلقكم وما يَبثّ مِن دابّة آياتٍ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: مِن شأنهم أن يوقنوا بالأشياء على ما هي عليه.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بالجرّ على إضمار الجارّ المذكور في الآيتين قبله. وقد قُرئ بذكره.[٥] والمراد باختلافِهما إمّا تعاقبُهما أو تفاوتُهما طُولًا وقِصَرًا.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عطفٌ على ﴿ٱخْتِلَٰفِ﴾ ﴿مِن رِّزْقٍ﴾ أي: مِن مطر هو[٦] سبب للرزق، عُبّر عنه بذلك تنبيهًا على كونه آيةً مِن جهتَي القدرة والرحمة. ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بأن أخرج منها أصنافَ الزروع والثمرات والنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وعَرائِها عن آثار الحياة وانتفاءِ قوّة التنمية عنها وخلوّ أشجارها عن الثمار.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٣.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.

٤ في الآية السابقة.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٢٨٥/٤.

٦ س ي: وهو.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ مِن جهة إلى أخرى، ومِن حال إلى حال. وقُرئ بتوحيد ﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾.[١] وتأخيره عن إنزال المطر مع تقدّمه عليه في الوجود إمّا للإيذان بأنّه آية مستقلّة حيث لو رُوعي الترتيب الوجودي لَربّما تُوهِّم أنّ / مجموع تصريف [٨٠ظ] الرياح وإنزالِ المطر آيةٌ واحدة، وإمّا لأنّ كون التصريف آيةً ليس لِمجرّد كونه مبدأً لإنشاء المطر؛ بل له ولسائر المنافع التي مِن جملتها سَوق السفُن في البحار.

﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بالرفع على أنّه مبتدأ خبرُه ما تقدّم مِن الجارّ والمجرور، والجملة معطوفة على ما قبلها.

وقُرئ بالنصب[٢] على الاختصاص. وقيل: على أنّها اسم ﴿إِنَّ﴾،[٣] والمجرور المتقدّم خبرُها بطريق العطف على معمولَي عاملَين مختلفَين، هما ﴿إِنَّ﴾ و﴿فِى﴾،[٤] أقيمت "الواو" مُقامَهما فعَمِلت الجرّ في ﴿ٱخْتِلَٰفِ﴾، والنصبَ فِي "آيَاتٍ".

وتنكير ﴿ءَايَٰت﴾ في المواقع الثلاثة للتفخيم كمًّا وكَيفًا. واختلاف الفواصِل لاختلاف مراتب "الآيات" في الدقّة والجَلاء.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر. وقوله تعالى: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ حالٌ عاملُها معنى الإشارة. وقيل: هو الخبر و﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ بدل، أو عطفُ بيان. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال مِن فاعل "نَتلو"، أو مِن مفعوله، أي: نَتلوها مُحقِّين، أو ملتبسةً بالحقّ.

﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ﴾ مِن الأحاديث ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: بعدَ آيات الله، وتقديمُ الاسم الجليل لتعظيمها، كما في قولهم: "أعجبَني زيدٌ وكرمُه"، أو بعدَ حديثِ الله الذي هو القرآن، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر، ٢٣/٣٩]، وهو المراد بـ﴿ءَايَٰتِهِ﴾ أيضًا، ومناطُ العطف التغاير العنواني. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بصيغة الغيبة. وقُرئ بـ"التاء".[٥]

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧١.

٣ الجاثية، ٣/٤٥.

٤ الجاثية، ٣/٤٥.

٥ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧١.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذّابٍ ﴿أَثِيمٍ﴾ كثيرِ الآثام.

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفة أخرى لـ﴿أَفَّاكٍ﴾. وقيل: استئناف. وقيل: حال مِن الضمير في ﴿أَثِيمٍ﴾. ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ حال مِن ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. ولا مَساغَ لجعله مفعولًا ثانيًا لـ﴿يَسْمَعُ﴾؛ لأنّ شرطه أن يكون ما بعده ممّا لا يُسمَع، كقولك: "سمعتُ زيدًا يقرأُ".

﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أي: يُقيم على كفره، وأصله مِن "إصرار الحمارِ على العانة".[1]

[٨١و] ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ / عن الإيمان بما سمعه مِن آيات الله تعالى، والإذعانِ لِما تنطِق به مِن الحقّ مُزدرئًا لها مُعجَبًا بما عنده مِن الأباطيل.

وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، وكان يشتري مِن أحاديث الأعاجِم، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن،[2] لكنّها وردت بعبارة عامّة، ناعيةً عليه وعلى كلّ مَن يسير سيرته ما هم فيه مِن الشرّ والفساد.

وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإصرار والاستكبار بعد سماع الآيات التي حقّها أن تُذعِن لها القلوب، وتخضعَ لها الرقاب، كما في قول مَن قال:

يرى غمراتِ الموت ثمّ يزورها[3]

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: كأنّه لم يسمعها، فخُفِّف وحُذف ضمير الشأن. والجملة حال مِن ضمير[4] ﴿يُصِرُّ﴾، أي: يصرّ شبيهًا بغير السامع. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره واستكباره.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ أي: إذا بلغه مِن آياتنا شيء، وعلِمَ أنّه مِن آياتنا، لا أنّه عَلِمه كما هو عليه، فإنّه بمَعزِل مِن ذلك العلم. وقيل: إذا علمَ منها شيئًا

---

١ العانة: القطيع مِن حُمُر الوحش، والجمع عُون. الصحاح للجوهري، «عون».

٢ تفسير مقاتل، ٨٣٦/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٨٦/٤.

٣ وفي هامش م: صدره:

ولا يكشف الغمّاءَ إلّا ابنُ حرّة

لجعفر بن عُلبة الحارثي في الحماسة للبصري، ٤٦/١.

٤ س – ضمير.

يمكن أن يتشبّث به المعاند ويجدَ له مَحملًا فاسدًا يتوسّل به إلى الطعن والغميزة ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾ أي: الآياتِ كلَّها ﴿هُزُوًا﴾ أي: مَهزوءًا بها، لا ما سمعه فقط. وقيل: الضمير للشيء، والتأنيثُ لأنّه في معنى الآية.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى "كلّ أفّاك" مِن حيث الاتّصاف بما ذُكر مِن القبائح، والجمعُ باعتبار الشمول للكلّ، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون، ٥٣/٢٣]، كما أنّ الإفراد فيما سبق مِن الضمائر باعتبار كلّ واحدٍ واحد. ﴿لَهُمۡ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ وصف العذاب بالإهانة توفيةً لحقّ استكبارهم واستهزائهم بآيات الله سبحانه وتعالى.

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾[1] أي: مِن قُدّامهم؛[2] لأنّهم متوجّهون إلى ما أُعِدّ لهم، أو مِن خلفهم؛ لأنّهم معرِضون عن ذلك مقبلون على الدنيا، فإنّ "الوراء" اسم للجهة التي يواريها الشخص مِن خلفٍ وقُدّام.

﴿وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم﴾ ولا يدفع ﴿مَّا كَسَبُواْ﴾ مِن الأموال والأولاد ﴿شَيۡـٔٗا﴾ مِن عذاب الله تعالى، أو شيئًا / مِن الإغناء، ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: [٨١ظ] الأصنامُ. وتوسيط حرف النفي بين المعطوفَين مع أنّ عدم إغناء الأصنام أظهرُ وأجلى مِن عدم إغناء الأموال والأولاد قطعًا مبنيٌّ على زعمهم الفاسد، حيث كانوا يطمَعون في شفاعتهم. وفيه تهكُّم.

﴿وَلَهُمۡ﴾ فيما وراءهم مِن جهنّم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادَر قَدرُه.

﴿هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿هُدٗى﴾ في غاية الكمال مِن الهداية، كأنّه نفسُها، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: بالقرآن، وإنّما وُضِع موضع ضميره قوله تعالى:

---

[1] س – جهنّم.

[2] س + جهنّم.

﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ لزيادة تشنيع كفرهم به، وتفظيعِ حالهم. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ أي: مِن أشدّ العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة ﴿عَذَابٌ﴾. وقُرئ بالجرّ[1] على أنّه صفة ﴿رِجْزٍ﴾.

وتنوين ﴿عَذَابٌ﴾ في المواقع الثلاثة للتفخيم، ورفعُه إمّا على الابتداء، وإمّا على الفاعليّة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ بأن جعلَه أملس السطح، يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب، ولا يمنع الغوصَ والخَرقَ لِمَيَعانه ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ وأنتم راكبوها، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارة والغوص والصيد وغيرها، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تشكروا النعَم المترتّبة على ذلك.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن الموجودات، بأن جعلها مدارًا لمنافعكم ﴿جَمِيعًا﴾ إمّا حال مِن "ما في السماوات والأرض"، أو توكيد له. ﴿مِّنْهُ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ﴿جَمِيعًا﴾، أو حال مِن ﴿مَا﴾، أي: جميعًا كائنًا منه تعالى، أو سخّر لكم هذه الأشياء كائنةً منه، مخلوقةً له تعالى، أو خبرٌ لمحذوف، أي: هي جميعًا منه تعالى.

وقُرئ: "مِنَّةً"[2] على المفعول له، و"مَنُّهُ"[3] على أنّه فاعل ﴿سَخَّرَ﴾ على الإسناد المجازي، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك مَنُّه.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم والجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٣.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن الأمور العظام ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمةَ الشأن كثيرةَ العَددِ ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في بدائع صُنع الله تعالى، فإنّهم يقِفون بذلك على جلائل نِعَمه تعالى ودقائقها، ويُوَفَّقون لشكرها.

﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ حذف المَقول لدلالة ﴿يَغْفِرُوا﴾ عليه، فإنّه جواب للأمر[١] باعتبار تعلّقه به، / لا باعتبار نفسه فقط،[٢] أي: قل لهم: "اغفروا" يغفروا ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي: يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقّعون وقائعه تعالى بأعدائه، مِن قولهم: "أيّام العرب" لوقائعها. وقيل: لا يأملون الأوقات التي وقّتها الله تعالى لثواب المؤمنين، ووعدهم الفوزَ فيها. [٨٢و]

قيل: نزلت قبل آية القتال[٣] ثمّ نُسخت بها. وقيل: نزلت في عمر رضي الله تعالى[٤] عنه حين شتمه غِفارِي، فهَمّ أن يَبطِش به.[٥]

وقيل: حين قال ابن أبيّ ما قال، وذلك أنّهم نزلوا[٦] في غزوة بني المصطلق على بئر يقال لها: المُرَيسِيع، فأرسل ابنُ أبيّ غلامَه يستقي، فأبطأ عليه، فلمّا أتاه قال له: «ما حبَسَك؟»، قال: «غلامُ عمر، قعد على طرف البئر، فما ترك أحدًا يستقي حتّى ملأ قِرَبَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقِرَبَ أبي بكر رضي الله عنه»،[٧] فقال ابن أبيّ: «ما مَثلُنا ومَثلُ هؤلاء إلّا كما قيل: سمِّن كلبك يأكُلك»، فبلغ ذلك عمرَ رضي الله عنه، فاشتمل سيفه يريد التوجّه إليه، فأنزلها الله تعالى.[٨]

---

١ س - للأمر.

٢ وفي هامش م: كما في قول مَن قال:

تِهْ أَحتَمِلْ واستَطِلْ أَخضَعْ وعِزَّ أَهُن
وأَعرِضْ أُقبِلْ وقُلْ أَسمَعْ ومُرْ أُطِعِ

وبعده:

ناهيكَ أنّك لو حمّلتَ قلبيَ ما
لم تستطِعه قلوبُ الناس يستطِعِ

«منه». | لابن زيدون في المطرِب لابن دِحية الكلبي، ص ١٦٥.

٣ وهي قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة، ٣٦/٩].

٤ س - تعالى.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٥٩/٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٦/٥.

٦ س - نزلوا.

٧ م - رضي الله عنه.

٨ أسباب النزول للواحدي، ص ٣٧٨؛ اللباب لابن عادل، ٣٥٤/١٧.

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة، والمراد بـ"القوم" المؤمنون، والتنكير لمدحهم والثناءِ عليهم، أي: أُمِروا بذلك ليجزي يوم القيامة قومًا -أيّما قوم، قومًا مخصوصين- بما كسبوا في الدنيا مِن الأعمال الحسنة التي مِن جملتها الصبرُ على أذيّة الكفّار، والإغضاءُ عنهم بكَظْم الغيظ واحتمال المكروه ما يقصُر عنه البيان مِن الثواب العظيم.

هذا، وقد جُوِّز أنْ يُراد بـ"القوم" الكفرةُ، وبـ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ سيّئاتُهم التي مِن جملتها ما حُكي مِن الكلمة الخبيثة. والتنكير للتحقير. وفيه أنّ مطلق الجزاء لا يصلح تعليلًا للأمر بالمغفرة، لتحقّقه على تقديرَي المغفرة وعدمِها، فلا بدَّ مِن تخصيصه بالكلّ، بأن لا يتحقّق بعض منه في الدنيا، أو بما يصدر عنه تعالى بالذات، وفي ذلك مِن التكلّف ما لا يخفى، وأن يُرادَ كِلا الفريقين، وهو أكثر تكلّفًا، وأشدّ تَمحّلًا.

وقُرئ: "لِيُجْزَى قَومٌ"،[1] و"لِيُجْزَى قَوْمًا"،[2] أي: لِيُجزَى الجزاءُ قومًا. وقُرئ: "لِنَجْزِيَ" بنون العظَمة.[3]

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ / لا يكاد يَسري عمل إلى غير عامله. [٨٢ظ]
﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ مالِكِ أموركم ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم خيرًا كان أو شرًا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراةَ ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ أي: الحكمةَ النظريّة والعمليّة، والفقهَ في الدين، أو فصلَ الخصومات بين الناس؛ إذ كان المُلكُ فيهم. ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ حيث كثُر فيهم الأنبياء ما لم يكثر في غيرهم. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ممّا أحلّ الله تعالى مِن اللّذائذ، كالمَنّ والسَّلوى، ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٨٩.
٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٢.
٣ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٢.

حيث آتيناهم ما لم نُؤتِ مَن عداهم مِن فَلْقِ البحر وإظلالِ الغَمام ونظائرهما. وقيل: على عالَمي زمانهم.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٧﴾

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ دلائلَ ظاهرةً في أمر الدين، ومعجزاتٍ قاهرةً. وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هو العِلم بمَبعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وما بُيِّن لهم مِن أمره، وأنّه يهاجر مِن تهامة إلى يثرب، ويكونُ أنصارُه أهلَ يثرب».[1]

﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ﴾ في ذلك الأمر ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ بحقِيقَته وحَقِّيَّته، فجعلوا ما يُوجب زوال الخلاف موجِبًا لرسوخه ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: عداوةً وحسدًا، لا شكًّا فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بالمؤاخذة والجزاء ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ مِن أمر الدين.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨﴾

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ﴾ أي: سنّةٍ وطريقةٍ عظيمةِ الشأن ﴿مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي: أمرِ الدين ﴿فَٱتَّبِعۡهَا﴾ بإجراء أحكامها في نفسك وفي غيرك مِن غير إخلال بشيء منها، ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: آراءَ الجهَلة واعتقاداتِهم الزائغةَ التابعةَ للشهوات، وهم رؤساء قريش، كانوا يقولون له عليه السلام: "ارجع إلى دين آبائك".

﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩﴾

﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ ممّا أراد بك إن اتبعتَهم، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ لا يواليهم ولا يتّبع أهواءهم إلّا مَن كان ظالمًا مثلَهم،

[1] التفسير البسيط للواحدي، ١٤١/٢٠؛ اللباب لابن عادل، ٣٥٧/١٧.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين أنت قِدوتُهم، فَدُمْ على ما أنت عليه مِن تولّيه خاصّةً، والإعراضِ عمّا سواه بالكلّيّة.

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

[٨٣و] ﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآن، أو اتّباعُ الشريعة / ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ فإنّ ما فيه مِن معالم الدين وشعائرِ الشرائع بمنزلة البصائر في القلوب، ﴿وَهُدًى﴾ مِن وَرْطة الضلالة، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ مَن شأنهم الإيقان بالأمور.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ استئناف مَسوق لبيان تباين حالَي المسيئين والمحسنين إثرَ بيان تباين حالَي الظالمين والمتّقين. و﴿أَمْ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى[١] "بل" للانتقال مِن البيان الأوّل إلى الثاني، و"الهمزةِ" لإنكار الحسبان، لكن لا بطريق إنكار الوقوع ونفيه، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص، ٢٨/٣٨]؛ بل بطريق إنكار الواقع واستقباحِه والتوبيخِ عليه. والاجتراح: الاكتساب.

﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ أي: نصيِّرَهم في الحكم والاعتبار وهم على ما هم عليه مِن مساوي الأحوال ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم فيما هم فيه مِن محاسن الأعمال، ونُعامِلَهم معاملتَهم في الكرامة ورفعِ الدرجة.

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي: مَحيا الفريقين جميعًا ومَماتُهم، حال مِن الضمير في الظرف والموصول معًا لاشتماله على ضميرَيهما على أنّ "السواء" بمعنى المُستوي. و﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مرتفعان به على الفاعليّة.

والمعنى: أم حسبوا أن نجعلهم كائنين مثلَهم حالَ كون الكلّ مستويًا محياهم ومماتهم، كلّا، لا يستوُون في شيء منهما، فإنّ هؤلاء في عزّ الإيمان والطاعة

---

[١] س + من.

وشرفهما في المَحيا، وفي رحمة الله تعالى ورضوانه في المَمات، وأولئك في ذُلّ الكفر والمعاصي وهَوانِهما في المَحيا، وفي لعنة الله والعذاب الخالد في المَمات، شتّانَ بينهما.

وقد قيل: المراد إنكار أن يستَوُوا في المَمات كما استَوَوا في الحياة؛ لأنّ المسيئين والمحسنين مستوٍ محياهم في الرزق والصحّة، وإنّما / يفترقون في المَمات. [٨٣ظ]

وقُرئ: "مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتَهُمْ"[١] بالنصب على أنّهما ظرفان، كـ"مَقْدَم الحاجّ"، و﴿سَوَآءً﴾ حال على حاله، أي: حالَ كونهم مستوين في محياهم ومماتِهم.

وقد ذكِر في الآية الكريمة وجوهٌ أُخَر مِن الإعراب، والذي يليق بجَزالة التنزيل هو الأوّل، فتدبّر.

وقُرئ: "سَوَاءٌ" بالرفع[٢] على أنّه خبر، و﴿مَّحْيَاهُمْ﴾ مبتدأٌ، فقيل: الجملة بدل مِن "الكاف". وقيل: حال.

وأيًا ما كان فنسبة حِسبان التساوي إليهم في ضمن الإنكار التوبيخي مع أنّهم بمَعزِل منه جازمون بفضلهم على المؤمنين للمبالغة في الإنكار، والتشديدِ في التوبيخ، فإنّ إنكار حِسبان التساوي والتوبيخَ عليه إنكارٌ لحِسبان الجزم بالفضل وتوبيخٌ عليه على أبلغ وجه وآكَدِه.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساءَ حكمهم هذا، أو بئس شيئًا حكموا به ذلك.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ استئناف مقرِّر لِما سبق مِن الحكم، فإنّ خلق الله تعالى لهما ولِما فيهما بالحَقّ المقتضي للعدل يستدعي لا محالةَ تفضيلَ المحسن على المسيء في المَحيا والمَمات، وانتصارَ المظلوم مِن الظالم، وإذ لم يطّرد ذلك في المَحيا فهو بعد المَمات حتمًا.

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٢.

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطفٌ على ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنّ فيه معنى التعليل؛ إذ معناه خلقها مقرونةً بالحكمة والصوابِ، دون العبث والباطل، فحاصله خلقها لأجل ذلك ولِتُجزَى... إلخ، أو على علّة محذوفة، مِثل: لِيَدلّ بها على قدرته، أو لِيَعدلَ ولِتُجزَى.

﴿وَهُمْ﴾ أي: النفوس المدلول عليها بـ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصِ ثواب، أو بزيادة عقاب. وتسمية ذلك ظلمًا -مع أنّه ليس كذلك على ما عُرف مِن قاعدة أهل السنّة- لبيان غاية تنزّه ساحة لُطفه تعالى عمّا ذُكر بتنزيله منزلةَ الظلم الذي يستحيل صدوره عنه سبحانه.[1]

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تعجيب مِن حال مَن ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى، فكأنّه عبده، أي: أَنَظرتَ[2] فرأيتَه؟ فإنّ ذلك ممّا يُقضَى منه العجب. وقُرئ: "آلِهَةً هَوَاهُ"؛[3] لأنّ أحدهم كان / يستحسن حجَرًا فيعبده، فإذا رأى أحسن منه رفضه إليه، فكأنّه اتّخذ آلهةً شتّى. [٨٤و]

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ وخذلَه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عالِمًا بضلاله وتبديله لِفطرة الله التي فطَر الناس عليها، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ بحيث لا يتأثّر بالمواعظ، ولا يتفكّر في الآيات والنُّذر. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ مانعةً عن الاستبصار والاعتبار. وقُرئ بفتح "الغين"،[4] وضمِّها.[5] وقُرئ: "غِشْوَةٌ".[6]

---

١ س: تعالى.

٢ وفي هامش م: فيه إشارة إلى أنّ المعطوف عليه محذوف. «منه».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤. وأمّا: "غَشْوَةً" بفتح "الغين" وإسكان "الشين" مِن غير "ألف" فقرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن بعد إضلاله تعالى إيّاه بموجَب تعاميه عن الهدى، وتماديه في الغيّ. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ألَا تلاحظون فلا تذكّرون. وقُرئ: "تَتَذَكَّرُونَ"[1] على الأصل.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ بيان لأحكام ضلالهم المَحكي، أي: قالوا مِن غاية غيّهم وضلالهم: ﴿مَا هِىَ﴾ أي: ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها، ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يصيبنا الموت والحياة فيها، وليس وَراءَ ذلك حياة. وقيل: نكون نُطَفًا وما قبلها وما بعدها ونحيا بعد ذلك، أو نموت بأنفسنا ونحيا ببقاءِ أولادنا، أو يموت بعضنا ويحيا بعضنا. وقد جُوِّز أن يريدوا به التناسخ، فإنّه عقيدة أكثر عبَدة الأوثان. وقُرئ: "نُحْيَا".[2]

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ إلّا مرورُ الزمان، وهو في الأصل مدّة بقاء العالَم، مِن "دَهَرَه"، أي: غلَبه. وقُرئ: "إِلَّا دَهْرٌ يَمُرُّ".[3] وكانوا يزعمون أنّ المؤثّر في هلاك الأنفس هو مرور الأيّام والليالي، وينكرون ملَك الموت وقبضَه للأرواح بأمر الله تعالى، ويضيفون الحوادث إلى الدهر والزمان. ومنه قوله عليه السلام: «لا تسبّوا الدهر، فإنّ الله هو الدهر»،[4] أي: فإنّ الله هو الآتي بالحوادث، لا الدهرَ.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي: بما ذُكر مِن اقتصار الحياة على ما في الدنيا، واستنادِ الحياة والموت إلى الدهر ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ ما مستنِدٍ إلى عقل أو نقلٍ، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ما هم إلّا قومٌ قُصارى أمرهم الظنّ والتقليد مِن غير أن يكون لهم شيء يصحّ أن يتمسّك به في الجملة، هذا معتقدُهم الفاسد / في أنفسهم. [٨٤ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٢٣/٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. جامع البيان للطبري، ٩٦/٢١.

٤ صحيح مسلم، ١٧٦٣/٤ (٢٢٤٦). ونحوه في صحيح البخاري، ٤١/٨ (٦١٨٢).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ الناطقةُ بالحقّ الذي مِن جملته البعث ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدلالة على ما نطقَت به، أو مبيِّنات له ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ بالنصب على أنّه خبر ﴿كَانَ﴾، أي: ما كان متمسَّكًا لهم شيء مِن الأشياء ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنّا نُبعَث بعد الموت، أي: إلّا هذا القولُ الباطل الذي يستحيل أن يكون مِن قَبيل الحجّة. وتسميته "حجّة" إمّا لسَوقهم إيّاه مساقَ الحجّة على سبيل التهكّم بهم، أو لأنّه مِن قَبيل:

تحيّةُ بينِهم ضربٌ وجيعُ[1]

وقُرئ برفع ﴿حُجَّتُهُمْ﴾[2] على أنّها اسم ﴿كَانَ﴾، فالمعنى: ما كان حجّتُهم شيئًا مِن الأشياء إلّا هذا القولَ الباطلَ.[3]

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ ابتداءً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم، لا كما تزعمون مِن أنكم تَحيَون وتموتون بحكم الدهر. ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ للجزاء ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في جمعكم، فإنّ مَن قدَر على البَدء قدَر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالةَ، والوعد المصدَّق بالآيات دلّ على وقوعها حتمًا، والإتيانُ بآبائهم حيث كان مزاحمًا للحكمة التشريعيّة امتنع إيقاعه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك مِن قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. وهو إمّا مِن تمام الكلام المأمور به، أو كلام مَسوق مِن جهته تعالى تحقيقًا للحقّ،

---

[1] صدره:
وخيلٍ قد دلَفتُ لها بخيلٍ
وهو منسوب لعمرو بن معدي كرب. انظر: شعر عمرو بن معدي كرب لمطاع الطرابيشي، ص ١٤٩.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن البصري والحسن الجعفي عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٤.

[3] وفي هامش م: وقد أشيرَ مرارًا إلى أنّه أقصر بحسب المعنى. «منه».

وتنبيهًا على أنّ ارتيابهم لجهلهم وقُصورهم في النظر والتفكّر، لا لأنّ فيه شائبةَ ريبٍ ما.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بيان لاختصاص المُلك المطلق والتصرّف الكلّي فيهما وفيما بينهما بالله عزّ وجلّ إثرَ بيان تصرّفه تعالى في الناس بالإحياء والإماتة والبعث والجمع للمجازاة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾: ﴿يَخْسَرُ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل منه.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمم المجموعة ﴿جَاثِيَةً﴾ باركةً على الرُّكَب مُستوفِزةً.[1] وقُرِئ: "جَاذِيَةً"،[2] أي: جالسةً على أطراف الأصابع. / و"الجُذُوُّ" أشدّ استيفازًا مِن "الجُثُوّ". وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿جَاثِيَةً﴾: مجتمِعة».[3] وقيل: جماعاتٍ، مِن "الجُثْوة"؛ وهي الجماعة. [٨٥و]

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ إلى صحيفة أعمالها. وقُرِئ: "كُلَّ"[4] بالنصب على أنّه بدل مِن الأوّل، و﴿تُدْعَىٰٓ﴾[5] صفة، أو حال، أو مفعول ثانٍ. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا[6] كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾... إلخ مِن تمام ما يقال حينئذ. وحيث كان كتابُ كلّ أمّة مكتوبًا بأمر الله تعالى أُضيفَ إلى نون العظَمة تفخيمًا لشأنه،

---

١ وفي هامش م: "استَوفَز في قَعدَته": انتصب فيها غيرَ مطمئنّ، أو وَضَع ركبتيه ورفع إليَتَه، أو استقلّ على رجليه ولمّا يَستوِ قائمًا، وقد تهيّأ للوثوب. قاموس. | القاموس المحيط للفيروزابادي، «وفز».

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٩/٥.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٩٢/٤؛ اللباب لابن عادل، ٣٧٠/١٧.

٤ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/٢.

٥ س: ويدعى.

٦ م س: بما.

وتهويلًا لأمره. فـ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، و﴿كِتَٰبُنَا﴾ خبره. وقوله تعالى: ﴿يَنطِقُ عَلَيۡكُم﴾ أي: يشهد عليكم ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مِن غير زيادة ولا نقصٍ، خبرٌ آخر، أو حال. و﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَنطِقُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ﴾... إلخ تعليل لنُطقه عليهم بأعمالهم مِن غير إخلال بشيء منها، أي: إنّا كنّا فيما قَبلُ نَستكتِب الملائكةَ ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن الأعمال، حسنةً كانت أو سيّئةً.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ٣٠﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ أي: في جنّته، تفصيل لِما يُفعَل بالأمم بعد بيان ما خُوطبوا به مِن الكلام المنطوي على الوعد والوعيد.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن الإدخال في رحمته تعالى[١] ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ الظاهرُ كونُه فوزًا لا فوزَ وراءَه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٣١﴾

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: فيقال لهم بطريق التوبيخ والتقريع: ألَم يكن تأتيكم[٢] رُسلي فلم تكن آياتي تُتلى عليكم؟ فحُذف المعطوف عليه ثقةً بدلالة القرينة عليه. ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ عن الإيمان بها، ﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ أي: قومًا عادتُهم الإجرام.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢﴾

---

١ س – تعالى.

٢ س: يأتيكم.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما وعده مِن الأمور الآتية، أو وَعْدُه بذلك ﴿حَقٌّ﴾ أي: واقع لا محالةَ، أو مطابق للواقع، ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ التي هي أشهَر ما وعدَه ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: في وقوعها. وقُرِئَ: "وَالسَّاعَةَ" بالنصب[1] عطفًا على اسم ﴿إِنَّ﴾. / وقراءة الرفع للعطف على محلّ ﴿إِنَّ﴾ واسمِها. [٨٥ظ]

﴿قُلْتُم﴾ لغاية عُتوّكم: ﴿مَا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: أيُّ شيء هي؟ استغرابًا لها. ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: ما نفعل إلّا ظنًّا، وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام، ٥٠/٦]. وقيل: ما نعتقد إلّا ظنًّا، أي: لا عِلمًا. وقيل: ما نحن إلّا نظنّ ظنًّا. وقيل: ما نظنّ إلّا ظنًّا ضعيفًا،[2] ويردّه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي: لإمكانه، فإنّ مقابل الاستيقان مطلقُ الظنّ، لا الضعيفُ منه. ولعلّ هؤلاء غيرُ القائلين: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾.[3]

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي: ظهَرَ لهم حينئذ ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ على ما هي عليه مِن الصورة المنكَرة الهائلة، وعايَنوا وَخامةَ عاقبتها، أو جزاءَها، فإنّ جزاء السيّئة سيّئةٌ. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مِن الجزاء والعقاب.

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ نترككم في العذاب تركَ المَنسيّ ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: كما تركتم عُدَّتَه ولم تبالوا به. وإضافة "اللقاء" إلى "اليوم" إضافةُ المصدر إلى ظرفه.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ما لأَحدٍ منكم ناصر واحد يخلّصكم منها.

---

[1] قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/٢.

[2] انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٢٦/٩.

[3] الجاثية، ٢٤/٤٥.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٣٥﴾

﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ بسبب أنكم ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: مَهزوءًا بها، ولم ترفعوا لها رأسًا، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فحسِبتم أن لا حياةَ سواها، ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: مِن النار. وقُرئ: "يَخرُجونَ"[1] مِن "الخروج". والالتفات إلى الغَيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانةً بهم أو بنقلهم مِن مقام الخطاب إلى غَيابة النار. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: يُطلب منهم أن يُعتِبوا ربّهم، أي: يُرضوه، لفوات أوانه.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦﴾

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ خاصّةً، ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا يستحقّ الحمدَ أحدٌ سواه. وتكرير "الربّ" للتأكيد والإيذانِ بأنّ ربوبيّته تعالى لكلّ منها بطريق الأصالة. وقُرئ برفع الثلاثة[2] على المدح بإضمار "هو".

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ / لظهور آثارها وأحكامِها فيهما. وإظهارُهما [٨٦و]
في موقع الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلَب، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في كلّ ما قضى وقدّر، فاحمَدوه، وكبّروه، وأطيعوه.

عنِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ ﴿حمٓ﴾ الجاثية سترَ الله تعالى عَورته، وسكّن رَوعته يوم الحساب».[3]

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن. المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥/٩٠.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٣٥٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٩٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٤٥

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

مكية إلاّ «قل للذين آمنوا يغفروا» الآية، وهي ستٌّ أو سبع وثلاثون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿حم﴾ اللهُ أعلم بمُراده به.

٢ ـ ﴿تنزِيلُ الكِتابِ﴾: القُرآنِ مُبتدأٌ ﴿مِنَ اللهِ﴾: خبرُه ﴿العَزِيزِ﴾ في مُلكِهِ ﴿الحَكِيمِ﴾ في صُنعه.

٣ ـ ٤ ـ ﴿إنَّ في السَّماواتِ والأرضِ﴾ أي: في خلقهما ﴿لآياتٍ﴾ دالّةً على قُدرة الله ـ تعالى ـ ووحدانيّته ﴿لِلمُؤمِنِينَ، وفي خَلقِكُم﴾ أي: خلقِ كُلّ منكم من نُطفة ثمّ من علَقة ثمّ من مُضغة إلى أن صار إنسانًا ﴿و﴾ خلقِ ﴿ما يَبُثُّ﴾: يُفرِّق في الأرض ﴿مِن دابَّةٍ﴾ أي: ما يدِبّ على الأرض من الناس وغيرهم، ﴿آياتٌ لِقَومٍ يُوقِنُونَ﴾ بالبعث، ٥ ـ ﴿و﴾ في ﴿اختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ﴾: ذَهابِهما ومجيئهما، ﴿وما أنزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِن رِزقٍ﴾: مطرٍ لأنه سبب الرزق، ﴿فأحيا بِهِ الأرضَ بَعدَ مَوتِها، وتَصرِيفِ الرِّياحِ﴾:.......

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

قولُهُ: (﴿و﴾ خَلَقَ) عطفٌ على المضافِ، إذ لا يحسنُ عطفُ ﴿ما﴾ على الضَّميرِ المجرورِ عندَ الجمهورِ.

قولُهُ: (بالبَعثِ) ورفعُ ﴿آياتٌ﴾ محمولٌ على محلِّ ﴿إنَّ﴾ واسمِها، ونصبَ حمزةُ والكِسائيُّ[1] حملاً على الاسمِ.

قولُهُ: (ذَهَابِهِمَا ومَجِيئِهِمَا) زيادتِهما ونقصِهما، ضَوئها وظلمتِها.

قولُهُ: (لأنَّهُ سَبَبُ الرِّزقِ) ومن أحسَنِ الرِّزقِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٩٤).

تقليبها مرّة جنوبًا ومرّة شمالاً وباردة وحارّة، ﴿آياتٌ لِقَومٍ يَعقِلُونَ﴾ الدليلَ فيُؤمنون.

٦ ـ ﴿تِلكَ﴾ الآيات المذكورة ﴿آياتُ اللهِ﴾: حُججه الدالّة على وحدانيّته، ﴿نَتلُوها﴾: نقصّها ﴿عليكَ بِالحَقِّ﴾: مُتعلّق بـ «نتلو». ﴿فبأيِّ حَدِيثٍ بَعدَ اللهِ﴾ أي: حديثِه ـ وهو القُرآن ـ ﴿وآياتِهِ﴾: حُججه ﴿يُؤمِنُونَ﴾ أي: كُفّارُ مكّة؟ أي: لا يؤمنون. وفي قراءة بالتاء. ٧ ـ ﴿وَيلٌ﴾: كلمةُ عذاب ﴿لِكُلِّ أفّاكٍ﴾: كذّاب ﴿أثِيمٍ﴾: كثير الإثم، ٨ ـ ﴿يَسمَعُ آياتِ اللهِ﴾: القُرآنَ ﴿تُتلَى عليهِ، ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على كُفره ﴿مُستكبِرًا﴾: مُتكبرًا عن الإيمان ﴿كأنْ لَم يَسمَعْها ـ فبَشِّرْهُ بعَذابٍ ألِيمٍ﴾: مُؤلم ـ ٩ ـ ﴿وإذا عَلِمَ مِن آياتِنا﴾ أي: القُرآنِ ﴿شَيئًا اتَّخَذَها هُزُوًا﴾ أي: مَهزوءًا بها. ﴿أُولئِكَ﴾ أي: الأفّاكون ﴿لَهُم عَذابٌ مُهِينٌ﴾: ذو إهانة، ١٠ ـ ١١ ـ ﴿مِن وَرائِهِم﴾ أي: أمامِهم لأنهم في الدنيا ﴿جَهَنَّمُ، ولا يُغني عَنهُم ما كَسَبُوا﴾ من المال والفِعال ﴿شَيئًا، ولا ما اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: الأصنامَ ﴿أولياءَ! ولَهُم عَذابٌ عَظِيمٌ. هذا﴾ أي: القُرآن ﴿هُدًى﴾ من الضلالة، ....

قولُهُ: (الدَّلِيلُ) وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ بنَصبِ: (آياتٍ)[1] على الاختصَاصِ.

قولُهُ: (مُتَعَلِّقٌ) أو: ملتبِسينَ ـ أو ملتبِسةً ـ به.

قولُهُ: (أي: لا يُؤمِنُونَ) أو التَّقديرُ: إن لم يُؤمِنوا بهما.

قولُهُ: (بالتَّاءِ) الخطابُ: شاميٌّ وكوفيٌّ غيرُ حفصٍ[2].

قولُهُ: (على كُفرِهِ) أي: يقيمُ.

قولُهُ: (أي: القُرآنِ) أي: إذا بلغَهُ شيءٌ وعلمَ أنَّه منها، أو: إذا سمعَ.

قولُهُ: (مَهزُوءاً بِهَا) من غيرِ أن يَرى فيها ما يناسِبُ الهزءَ.

قولُهُ: (أي: الأَفَّاكُونَ) أو: المستهزِؤونَ، وهو الأقربُ.

قولُهُ: (في الدُّنيَا) مُستقبِلونَ إلى العُقبى، أو: من خلفِهِم؛ لأنَّهم متوجِّهونَ إلى الدُّنيا، أو لأنَّه بعد آجالِهِم.

قولُهُ: (والنَّوَال)[3] والعبيدُ والأولادُ؛ أي: لا تدفَعُ شيئاً من العذابِ أو الإغناءِ.

قولُهُ تعالى: (﴿وَلَهُم عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾) لا يتحمَّلونَهُ، أو: لا يمكنُ وصفُهُ.

قولُهُ: (أي: القُرآنُ) يعني: الإشارةُ إليه دونَ ما ذُكِرَ من الآياتِ المصنوعَةِ، ويدلُّ عليه ما بعدَهُ؛ لأنَّهم لم يكفُروا بالمصنوعةِ حيث اعترَفوا بصانِعِها.

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٧٤).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٩٤).

(٣) كذا وقع عنده، وفي نسخة الجلالين بدلها: «والفعال».

﴿والَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِم لَهُم عَذابٌ﴾: حظٌّ ﴿مِن رِجْزٍ﴾ أي: عذابٍ ﴿أَلِيمٌ﴾: مُوجعٌ.

١٢ ـ ١٣ ـ ﴿اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ البَحرَ لِتَجرِيَ الفُلكُ﴾: السفن ﴿فِيهِ بِأَمرِهِ﴾: بإذنه، ﴿ولِتَبتَغُوا﴾: تطلبوا بالتجارة ﴿مِن فَضلِهِ، ولَعَلَّكُم تَشكُرُونَ، وسَخَّرَ لَكُم ما في السَّماواتِ﴾ من شمس وقمر ونُجوم وماء وغيره ﴿وما في الأرضِ﴾ من دابّة وشجر ونبات وأنهار وغيره، أي: خلق ذلك لمنافعكم ﴿جَمِيعًا﴾: تأكيدٌ ﴿مِنهُ﴾: حالٌ، أي: سخّرها كائنةً منه تعالى. ﴿إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها فيُؤمنون.

١٤ ـ ﴿قُل لِلَّذِينَ آمَنُوا، يَغفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرجُونَ﴾: يخافون ﴿أَيَّامَ اللهِ﴾: وقائعَه، أي: اغفِروا للكُفّار ما وقع منهم من الأذى لكم ـ وهذا قبل الأمر بجِهادهم ـ ﴿لِيَجزِيَ﴾ أي: اللهُ، وفي قراءة بالنون، ﴿قَومًا بِما كانُوا يَكسِبُونَ﴾ من الغفر للكُفّار أذاهم. ١٥ ـ ﴿مَن عَمِلَ صالِحًا فَلِنَفسِهِ﴾ عَمِلَ، ﴿ومَن أساءَ فعلَيها﴾ إساءتُه، ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم تُرجَعُونَ﴾: تَصيرون، فيُجازي المُصلحَ والمُسيء.

قولُهُ: (حَظٌّ) الظَّاهرُ: نوعُ عذابٍ، والرِّجزُ: جنسُ أشدِّ العذابِ.

قولُهُ: (مُوجِعٌ) وقرأَ مكِّيٌّ وحفصٌ بالرَّفعِ[1].

قولُهُ: (بِإذنِهِ) وتسخيرِهِ.

قولُهُ: (بالتِّجَارَةِ) والغوصِ والصَّيدِ وغيرِها.

قولُهُ: (وأَنهَارٍ) الأنسبُ: نَهرٍ.

قولُهُ: (حَالٌ) أو خبرُ محذوفٍ؛ أي: هي جميعاً منهُ، وقُرِئَ: (مِنَّةً) على المفعولِ له[2].

قولُهُ: (أي: اغفِرُوا) يعني: حُذِفَ المقولُ لدلالةِ الجوابِ عليه.

قولُهُ: (أي: اللهُ) علَّةٌ للأمرِ.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) للشَّاميِّ وحمزةَ والكسائيِّ[3].

قولُهُ: (مِنَ الغفرِ) أو الإساءةِ، أو ما يعمُّهما، والقومُ هم المؤمنونَ، أو الكافرونَ، أو كلاهُما، فيكونُ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ، أو التَّحقيرِ، أو الشُّيوعِ.

قولُهُ: (تَصِيرُونَ) حلُّ المعنى، والأولى: تُردُّونَ.

قولُهُ: (المُصلِحَ) الأحسنُ: المحسنَ، أو: الصَّالحَ.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) وهي قراءة شاذة، ونسبت لابن عباس وعبيد بن عمير، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٣٩).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٩٥).

١٦ ـ ﴿ولَقَد آتينا بَني إسرائيلَ الكِتابَ﴾: التوراة ﴿والحُكمَ﴾ به بين الناس ﴿والنُّبُوّةَ﴾ لمُوسَى وهارونَ منهم، ﴿ورَزَقْناهُم مِنَ الطَّيِّباتِ﴾: الحلالات كالمَنّ والسلوى، ﴿وفَضَّلْناهُم علَى العالَمِينَ﴾ أي: عالَمِي زمانهم العُقلاء، ١٧ ـ ﴿وآتيناهُم بَيِّناتٍ مِنَ الأمرِ﴾ أي: أمر الدِّين من الحلال والحرام وبِعثة مُحمّد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ ﴿فما اختَلَفُوا﴾ في بِعثته ﴿إلاّ مِن بَعدِ ما جاءَهُمُ العِلمُ بَغْيًا بَينَهُم﴾ أي: لِبغيٍ حدث بينهم حسدًا له. ﴿إنَّ رَبَّكَ يَقضِي بَينَهُم يَومَ القِيامةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَختَلِفُونَ﴾.

١٨ ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْناكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿علَى شَرِيعةٍ﴾: طريقة ﴿مِنَ الأمرِ﴾: أمر الدِّين. ﴿فاتَّبِعْها، ولا تَتَّبِعْ أهْواءَ الَّذِينَ لا يَعلَمُونَ﴾ في عِبادة غير الله. ١٩ ـ ﴿إنَّهُم لَن يُغنُوا﴾: يدفعوا ﴿عَنكَ مِنَ اللهِ﴾: من عذابه ﴿شَيئًا! وإنَّ الظّالِمِينَ﴾: الكافرين ﴿بَعضُهُم أَولِياءُ بَعضٍ، واللهُ وَلِيُّ المُتَّقِينَ﴾: المؤمنين. ٢٠ ـ ﴿هذا﴾ القُرآن ﴿بَصائرُ لِلنّاسِ﴾: مَعالمُ، يتبصّرون بها في الأحكام والحُدود، ﴿وهُدًى ورَحْمةٌ لِقَومٍ يُوقِنُونَ﴾ بالبعث.

٢١ ـ ﴿أم﴾: بمعنى همزة الإنكار ﴿حَسِبَ الَّذِينَ اجتَرَحُوا﴾: اكتسبوا ﴿السَّيِّئاتِ﴾:............

قولُهُ: (لِمُوسَى وهَارُونَ) وغيرِهما؛ إذ كَثُرَ فيهم الأنبياءُ ما لم يكثُرْ في غيرِهم.

قولُهُ: (عَالَمِي زَمَانِهِم) حيثُ آتيناهُم ما لم نؤتِ غيرَهُم.

قولُهُ: (أَمرِ الدِّينِ) أي: أدلة في أمرِ الدِّينِ، وتندرجُ فيه المعجِزاتُ.

قولُهُ: (وبِعثَةِ مُحمَّدٍ) أي: آياتٍ مبيِّنةً لصدقِهِ.

قولُهُ: (في بَعثِهِ) أي: ذلك الأمرِ[1].

قولُهُ: (حَسَداً) وعداوةً، أو: طلبَ رئاسةٍ.

قولُهُ: (في عِبَادَةِ غَيرِ اللهِ) وهم رؤساءُ قريشٍ، قالوا له: ارجِعْ إلى دينِ آبائِكَ.

قولُهُ: (مِنْ عَذَابِهِ) الأولى: ممَّا أرادَ بكَ.

قولُهُ: (القُرآنُ) أو اتِّباعُ الشَّريعةِ.

قولُهُ: (مَعَالِمُ) بيِّناتٌ تبصِّرُهُم وجهَ الفلاحِ.

قولُهُ: (بالبَعثِ) أو يطلبونَ اليَقينَ.

قولُهُ: (بِمَعنَى: هَمزَةِ الإِنكَارِ) يعني: ﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ، ومعنى الهمزةِ فيها: إنكارُ الحِسبانِ.

قولُهُ: (اكتَسَبُوا) ومنه الجارِحَةُ.

---

(١) «أي ذلك الأمر» لعل الصواب: أو ذلك. . .، أي: فما اختلفوا في ذلك الأمر إلا من بعد ما جاءهم العلم بحقيقة الحال.

الكُفرَ والمعاصيَ ﴿أن نَجعلَهُم كالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ، سَواءٌ﴾: خبرٌ ﴿مَحياهُم ومَماتُهُم﴾؟ مبتدأ ومعطوف، والجملة: بدل من الكاف، والضميران للكُفّار. المعنى: أحسِبوا أن نجعلهم في الآخرة في خير كالمُؤمنين؟ أي: في رغَد من العيش مساوٍ لعيشهم في الدنيا، حيثُ قالوا للمؤمنين: لئن بُعثنا لَنُعطَيَنَّ من الخير مِثلَ ما تُعطَون.

قال تعالى على وَفق إنكاره بالهمزة: ﴿ساءَ ما يَحكُمُونَ﴾! أي: ليس الأمر كذلك، فهم في الآخرة في العذاب على خِلاف عيشهم في الدنيا، والمُؤمنون في الآخرة في الثواب بعملهم الصالحاتِ في الدنيا من الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك. وما: مصدريّة، أي: بئس حُكمًا حُكمُهم هذا! ٢٢ ـ ﴿وخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ بِالحَقِّ﴾: مُتعلّق بـ «خلق»، ليدلّ على قُدرته ووحدانيّته، ﴿ولِتُجزَى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾ من المعاصي والطاعات، فلا يُساوي الكافرُ المؤمنَ، ﴿وهُم لا يُظلَمُونَ﴾.

٢٣ ـ ﴿أفرَأَيتَ﴾: أخبِرْني ﴿مَنِ اتَّخَذَ إلَـٰهَهُ هَواهُ﴾: ما يهواه من حجَر بعد حجَر يراه أحسنَ، ﴿وأضَلَّهُ اللهُ علَى عِلمٍ﴾ منه ـ تعالى ـ أي: عالمًا بأنه من أهل الضلالة قبل خلقه، ﴿وخَتَمَ علَى سَمعِهِ وقَلبِهِ﴾، فلم يسمعِ الهدى ولم يعقله فلا يتفكّر في الآيات، ﴿وجَعَلَ علَى بَصَرِهِ غِشاوةً﴾: ظُلمة فلم يُبصرِ الهُدى؟ ويُقدَّر هنا المفعول الثاني لـ «رأيت» أي: أيهتدي؟ ﴿فمَن يَهدِيهِ مِن بَعدِ اللهِ﴾ أي: بعدِ إضلاله إيّاه؟ أي: لا يهتدي. ﴿أفلا تَذَكَّرُونَ﴾: تتّعظون؟ فيه إدغام إحدى التاءين في الذال.

قولُهُ: (مِنَ الكَافِ) ويدلُّ عليه قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وحفصٍ: ﴿سواءً﴾[1] بالنَّصبِ على البدلِ، أو الحالِ من الضَّميرِ في الكافِ، أو المفعوليَّةِ والكافُ حالٌ.

قولُهُ: (أنْ نَجْعَلَهُم) أي: نصيِّرَهُم.

قولُهُ: (حُكْماً) أي: شيئاً حَكَموا به.

قولُهُ: (حُكْمُهُم هَذا) الأظهرُ: ذلكَ.

قولُهُ: (لِيَدُلَّ) إشارَةٌ إلى علَّةٍ مقدَّرةٍ عطفَ عليها ﴿لتُجزَى﴾.

قولُهُ: (مَا يَهوَاهُ) أي: مَهْوِيَّه؛ أي: تركَ متابعَةَ الهدَى إلى مُطَاوعَةِ الهَوَى، فكأنَّهُ يعبدُهُ، وقُرِئَ: (آلِهةً)[2]؛ لأنَّه كانَ أحدُهُم يستحسِنُ حجراً فيعبدُهُ، فإذا رأى أحسنَ منه رفضَهُ إليه، فتفسيرُ الشَّيخِ يلائمُ الشَّاذَّةَ.

قولُهُ: (فيهِ إدغَامُ) وفيه تركُهُ لحفصٍ وحمزةَ والكسائيِّ[3].

---

(١) انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٧٢).

(٢) وهي قراءة شاذة، ونسبت للأعرج، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٤٣٤).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٧٢)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٨).

٢٤ - ٢٥ - ﴿وقالُوا﴾ أي: منكرو البعث: ﴿ما هِيَ﴾ أي: الحياةُ ﴿إلاّ حَياتُنا﴾ التي في ﴿الدُّنيا، نَمُوتُ ونَحيا﴾ أي: يموت بعض ويحيا بعض بأن يُولدوا، ﴿وما يُهلِكُنا إلاّ الدَّهرُ﴾ أي: مرور الزمان. قال تعالى: ﴿وما لَهُم بِذلِكَ﴾ المقولِ ﴿مِن عِلمٍ. إنْ﴾: ما ﴿هُم إلاّ يَظُنُّونَ. وإذا تُتلَى علَيهِم آياتُنا﴾، من القُرآنِ الدالّةُ على قُدرتنا على البعث ﴿بَيِّناتٍ﴾: واضحاتٍ حالٌ، ﴿ما كانَ حُجّتَهُم إلاّ أن قالُوا: ائتُوا بِآبائنا﴾ أحياءً، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ أنا نُبعث. ٢٦ - ﴿قُلِ: اللهُ يُحيِيكُم﴾ حين كنتم نُطفًا، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُم، ثُمَّ يَجمَعُكُم﴾ أحياءً ﴿إلَى يَومِ القِيامةِ، لا رَيبَ﴾: شكَّ ﴿فِيهِ، ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ وهم القائلون ما ذُكر ﴿لا يَعلَمُونَ﴾.

٢٧ - ﴿ولِلهِ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ، ويَومَ تَقُومُ السّاعةُ﴾ يُبدل منه ﴿يَومَئذٍ يَخسَرُ المُبطِلُونَ﴾: الكافرون، أي: يظهر خُسرانهم بأن يصيروا إلى النار. ٢٨ - ﴿وتَرَى كُلَّ أُمّةٍ﴾ أي: أهلِ دِين ﴿جاثِيةً﴾ على الرُّكَب أو مُجتمعةً، ﴿كُلُّ أُمّةٍ تُدعَى إلَى كِتابِها﴾: كِتاب أعمالها، ويقال لهم: ﴿اليَومَ تُجزَونَ ما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ أي: جزاءه. ٢٩ - ﴿هذا كِتابُنا﴾: دِيوان الحَفَظة، ﴿يَنطِقُ علَيكُم بِالحَقِّ. إنّا كُنّا نَستَنسِخُ﴾: نُثبت ونحفظ ﴿ما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾.

قولُهُ: (أي: الحَيَاةُ) أو الحالُ.

قولُهُ: (الَّتي) الظَّاهرُ: حياتُنا الدُّنيا الَّتي نحنُ فيها.

قولُهُ: (أي: يَمُوتُ بَعضٌ) أو: نكونُ أمواتاً نطفاً وما قبلَها ونَحيا بعدَ ذلك، ويحتملُ أنَّهم أرادُوا به التَّناسُخَ، فإنَّهُ عقيدةُ أكثرِ عبَدَةِ الأوثانِ.

قولُهُ: (المَقُولِ) إذ لا دليلَ لهم عليهِ.

قولُهُ: (واضِحَاتٍ) [أي: واضحاتِ] الدِّلالةِ على خلافِ معتقَدِهِم، أو مبيِّناتٍ له.

قولُهُ: (أَحيَاءً) وإنَّما سمَّاهُ حجَّةً على حسبانِهِم ومساقِهِم.

قولُهُ: (لا شَكَّ) فإنَّ مَنْ قدرَ على الابتداءِ[1] قَدرَ على الإعادةِ، والحكمَةُ اقتضَتِ الجمعَ للمُجَازاةِ، والوَعدُ المصدَّقُ [بالآيات] دلَّ على وقوعِها، وإنْ كانَ كذلك أمكنَ الإتيانُ بهم، لكنَّ الحكمَةَ اقتضَتْ أن يُعادُوا يومَ الجمعِ للجزاءِ.

قولُهُ: (دِيوَانُ الحَفَظَةِ) أضافَ صَحائِفَ أعمالِهِم إلى نفسِهِ لأنَّه أمَرَ الكتبَةَ أن يَكتُبوا فيها أعمالَهُم، وقولُهُ: (﴿يَنطِقُ﴾) أي: يشهَدُ عليكم بما عمِلتُم بلا زيادةٍ ونُقصانٍ.

قولُهُ: (نُثبِتُ) الظَّاهرُ: تستكتِبُ الملائكَةُ أعمالَكُم.

---

(١) في (م): «الإبداء».

٣٠ـ ﴿فأمّا الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ فيُدخِلُهُم رَبُّهُم في رَحْمتِهِ﴾: جنّتِه ـ ﴿ذلِكَ هُوَ الفَوزُ المُبينُ﴾: البيِّن الظاهر ـ ٣١ـ ﴿وأمّا الَّذينَ كَفَرُوا﴾ فيقال لهم: ﴿أفلَم تَكُنْ آياتِي﴾: القُرآنُ ﴿تُتلَى علَيكُم، فاستَكبَرتُم﴾: تكبّرتم، ﴿وكُنتُم قَوماً مُجرِمِينَ﴾ كافرين؟ ٣٢ـ ﴿وإذا قِيلَ﴾ لكم أيها الكُفّار: ﴿إنَّ وَعدَ اللهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ، والسّاعةُ﴾ ـ بالرفع والنصب ـ ﴿لا رَيبَ﴾: شكَّ ﴿فِيها. قُلتُم: ما نَدرِي: ما السّاعةُ؟ إنْ﴾: ما ﴿نَظُنُّ إلاّ ظَنّاً﴾ ـ قال المُبرّد: أصله: إن نحن إلاّ نظنّ ظنّاً ـ ﴿وما نَحنُ بِمُستَيقِنِينَ﴾ أنها آتية.

٣٣ـ ﴿وبَدا﴾: ظهر ﴿لَهُم﴾ في الآخرة ﴿سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا﴾ في الدنيا، أي: جزاؤها، ﴿وحاقَ﴾: نزل ﴿بِهِم ما كانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ﴾ أي: العذابُ، ٣٤ـ ﴿وقِيلَ: اليَومَ نَنساكُم﴾: نترككم في النار ﴿كَما نَسِيتُم لِقاءَ يَومِكُم هذا﴾ أي: كما تركتم العمل للقائه، ﴿ومأواكُمُ النّارُ، وما لَكُم مِن ناصِرِينَ﴾ منها.

قولُهُ: (جَنَّتِهِ) أي: الَّتي من جملَتِها الجنَّةُ.

قولُهُ: (فيُقَالُ لَهُم) ﴿أ﴾لم يأتِكُم رُسُلِي ﴿فلَمْ تَكُنْ﴾، فحُذِفَ القولُ والمعطوفُ عليه اكتفاءً بالمقصودِ واستغناءً بالقرينةِ.

قولُهُ: (تَكَبَّرْتُم) عن الإيمانِ بها.

قولُهُ: (كَافِرِينَ) عادتُهُم الإجرامُ.

قولُهُ: (بالبَعثِ) يحتمِلُ الموعودَ والمصدرَ.

قولُهُ: (والنَّصبِ) حمزةُ[1] عطفاً على اسمِ: ﴿إنَّ﴾، وهو إفرادٌ للمقصودِ.

قولُهُ: (وأَصلُهُ) نظُنُّ ظنًّا، فأُدخِلَ حَرفا النَّفيِ والاستثناءِ لإثباتِ الظَّنِّ ونفيِ ما عداهُ، كأنَّهُ قالَ: ما نحنُ إلَّا نظنُّ ظنًّا.

قولُهُ: (أَنَّها آتِيَةٌ) تأكِيدٌ.

قولُهُ: (فِي الدُّنيَا) وحسبوها حَسَناتٍ.

قولُهُ: (أي: العَذَابُ) وهو الجَزاءُ.

قولُهُ: (في النَّارِ) تَرْكَ ما يُنسَى.

قولُهُ: (لِلِقَائِهِ) من بابِ إضافَةِ المصدرِ إلى ظرفِهِ.

قولُهُ: (مِنهَا) يُخلِّصُونَكُم.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٩٥).

٣٥ ـ ﴿ذلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذتُم آياتِ اللهِ﴾: القُرآنَ ﴿هُزُوًا، وغَرَّتكُمُ الحَياةُ الدُّنيا﴾ حتّى قلتم: لا بعثَ ولا حساب. ﴿فاليَومَ لا يَخرُجُونَ﴾ ـ بالبناء للفاعل وللمفعول ـ ﴿مِنها﴾: من النار، ﴿ولا هُم يُستَعتَبُونَ﴾ أي: لا يُطلب منهم أن يُرضُوا ربَّهم بالتوبة والطاعة لأنها لا تنفع يومئذ.

٣٦ ـ ﴿فلِلّٰهِ الحَمدُ﴾: الوصفُ بالجميل على وفاء وعده في المُكذّبين، ﴿رَبِّ السَّماواتِ ورَبِّ الأرضِ رَبِّ العالَمِينَ﴾: خالقِ ما ذُكر ـ والعالَمُ: ما سِوى اللهِ، وجُمع لاختلاف أنواعه. ورَبِّ: بدل

٣٧ ـ ﴿ولَهُ الكِبرِياءُ﴾: العظمة ﴿في السَّماواتِ والأرضِ﴾: حالٌ، أي كائنةً فيهما، ﴿وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾. تقدّمَ.

قولُهُ: (للفَاعِلِ) حمزَةُ والكسائيُّ[1].

قولُهُ: (مِنهُم) أن يُعتِبُوا؛ أي: يُرضوا.

قولُهُ: (في المُكَذِّبِينَ) ووعدِهِ للمصدِّقينَ.

قولُهُ: (و﴿رَبِّ﴾) الأوَّلُ بدلٌ من: «اللهِ».

قولُهُ: (العَظَمَةُ) أي: ظهرَ فيهِما آثارُها، واللهُ أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٥٩٥)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٠٨).

سورة الجاثية

وتسمى: سورة الشريعة، وسورة الدهر ـ كما حكاه الكرمانيُّ في «العجائب» ـ لذكرهما فيها. وهي مكية، قال ابن عطية[1]: بلا خلاف. وذكر الماوردي[2]: إلا: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾ [الآية: ١٤] فمدنية، وحُكي هذا الاستثناء في «جمال القرَّاء»[3] عن قتادة، وسيأتي الكلام في ذلك إن شاء الله تعالى.

وهي سبع وثلاثون آية في الكوفي وستٌّ وثلاثون في الباقية، لاختلافهم في «حم» هل هي آية مستقلة أَوْ لا؟

ومناسبة أوَّلها لآخِر ما قبلها في غاية الوضوح.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١﴾ إنْ جُعِلَ اسماً للسورة فمحلُّه الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا مسمًّى بـ«حم». وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبرٌ بعد خبر على أنه مصدر أُطلق على المفعول مبالغة، وقوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ صلته، أو خبر ثالث، أو حال من «تنزيل» عامِلُها معنى الإشارة، أو من «الكتاب» ـ الذي هو مفعولٌ معنًى ـ عامِلُها المضافُ.

وقيل: «حم» مبتدأ، وهذا خبره، والكلام على المبالغة أيضاً، أو تأويلِ

---

(١) في المحرر الوجيز ٥/ ٧٩.
(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٦٠.
(٣) ١/ ١٣٨.

«تنزيل» بمنزل، والإضافة من إضافة الصفة لموصوفها. واعتبار المبالغة أولى، أي: المسمى به تنزيل.. إلخ.

وتُعقِّب بأن الذي يُجعل عنواناً للموضوع حقُّه أن يكون قبلَ ذلك معلومَ الانتساب إليه، وإذ لا عهد بالتسمية بعدُ فحقُّها الإخبار بها.

وجوَّز جارُ الله[1] جَعْلَ «حم» مبتدأ بتقدير مضاف، أي: تنزيل حم، و«تنزيل» المذكور خبره، و«من الله» صلته. وفيه إقامة الظاهر مُقام المُضمر إيذاناً بأنه الكتاب الكامل إن أُريد بالكتاب السورة، وفيه تفخيمٌ ليس في: تنزيلُ حم تنزيلٌ من الله، ولهذا لمَّا لم يُراع في «حم السجدة» هذه النكتة عقَّب بقوله تعالى: (كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ) لِيُفيد هذه الفائدة مع التفنُّن في العبارة. وإن أريد الكتاب كلُّه فللإشعار بأن تنزيلَه كإنزال الكلِّ في حصول الغرض من التحدِّي والتهدِّي، فدعوى عراءِ هذا الوجهِ عن فائدةٍ يُعتَدُّ بها عراءٌ عن إنصافٍ يُعتَدُّ به.

وإن جعل تعديداً[2] للحروف فلا حظَّ له من الإعراب، وكان «تنزيل» خبرَ مبتدأ مُضمرٍ يلوِّح به ما قبلَه، أي: المؤلَّفُ من جنس ما ذكر تنزيلُ الكتاب، أو مبتدأ خبرُه الظرف بعدَه، على ما قاله جارُ الله[3].

وقيل: «حم» مقسم به، ففيه حرف جرٍّ مقدَّر، وهو في محل جرٍّ أو نصب على الخلاف المعروف فيه، و«تنزيل» نعت مقطوع، فهو خبر مبتدأ مقدَّر، والجملة مستأنفة، وجواب القَسَم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ وهو على ما تقدَّم استئنافٌ للتنبيه على الآيات التكوينية.

وجُوِّز أن يكون «تنزيل الكتاب من الله» مبتدأ وخبراً، والجملة جوابُ القَسَم، وهو خلاف الظاهر. وقيل: يقدر «حم» على كونه مقسماً به مبتدأ محذوف الخبر، أي: حم قَسمي، ويكون «تنزيل» نعتاً له غير مقطوع.

وعلى سائر الأوجه قولُه سبحانه: «العزيز الحكيم» نعتٌ للاسم الجليل.

---

(١) الكشاف ٣/٥٠٨.

(٢) قوله: وإن جعل تعديداً...، عطف على قوله في أول السورة: إن جعل اسماً للسورة...

(٣) المصدر السابق.

وجوَّز الإمام[١] كونه صفةً للكتاب، إلا أنه رجَّح الأول بعد احتياجه إلى ارتكاب المَجاز مع زيادة قرب الصفة من الموصوف فيه، وأوجبه أبو حيان[٢]؛ لما في الثاني من الفصل بين الصفة والموصوف الغير الجائز.

وقوله عز وجل: (إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ) إلخ يجوز أن يكون بتقدير مضاف، أي: إن في خلق السماوات، كما رواه الواحدي عن الزجاج[٣]؛ لِمَا أنه قد صرّح به في آية أُخرى، والقرآن يُفسِّر بعضُه بعضاً، ويناسبه قوله عز وجل: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ إلى آخره. ويجوز أن يكون على ظاهره، وحينئذ يكون على أحد وجهين: أحدهما: إن فيهما لآياتٍ، أي: ما فيهما من المخلوقات كالجبال والمعادن والكواكب والنَّيِّرين، وعلى هذا يكون قوله سبحانه: «وفي خلقكم» من عطف الخاصِّ على العامِّ. والثاني: إن أنفسهما لآيات لِمَا فيها من فنون الدلالة على القادر الحكيم جل شأنه، وهذا أظهرُ، وهو أبلغُ من أن يقال: إنَّ في خَلْقِهما لآيات، وإن كان المعنى آيلاً إليه. و«في خلقكم» خبرٌ مقدَّم.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ عطف على «خلق»، وجوِّز في «ما» كونها مصدريةً وكونها موصولةً؛ إما بتقدير مضاف، أي: وفي خلق ما ينشره ويُفرِّقه من دابة، أو بدونه. وجوِّز عطفه على الضمير المتصل المجرور بالإضافة، و«ما» موصولة لا غير على الظاهر، وهو مبنيٌّ على جواز العطف على الضمير المتصل المجرور من غير إعادة الجارِّ، وذلك مذهب الكوفيين ويونس والأخفش؛ قال أبو حيان[٤]: وهو الصحيح، واختاره الأستاذ أبو علي الشلوبين. ومذهب سيبويه وجمهور البصريين منعُ العطف المذكور سواء كان الضميرُ مجروراً بالحرف أو بالإضافة؛ لشدَّة الاتصال فأَشْبَهَ العطفَ على بعض الكلمة.

وذكر ابن الحاجب في «شرح المفصل» في باب الوقف منه أن بعض النحويين

---

(١) في التفسير الكبير ٢٧/ ٢٥٦.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٢.
(٣) معاني القرآن ٤/ ٤٣١، والوسيط ٤/ ٩٤.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٢.

يُجوِّزون العطف في المجرور بالإضافة دون المجرور بالحرف؛ لأنَّ اتصال المجرور بالمضاف ليس كاتصاله بالجارِّ؛ لاستقلال كلٍّ واحد منهما بمعناه، فلم يشتدَّ اتصالُه فيه اشتدادَه مع الحرف، وأجاز الجَرْميُّ والزيادي[1] العطف إذا أُكِّد الضمير المتصل بمنفصلٍ، نحو: مررت بك أنت وزيد.

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ مبتدأ مؤخَّر، والجملة معطوفة على جملة «إنَّ في السماوات» إلخ.

وقرأ أُبيّ وعبد الله: «لآيات» باللام، كذا في «البحر»[2]، ولم يُبين أن «آيات» مرفوع أو منصوب، فإن كان منصوباً فاللام زائدةٌ في اسم «إنَّ» المتقدِّم عليه خبرُها، وهو أحد مواضع زيادته المطَّردة الكثيرة، وإن كان مرفوعاً فهي زائدة في المبتدأ، ويقلُّ زيادتها فيه، وحسَّن زيادتَها هنا تقدُّم «إنَّ» في الجملة المعطوف عليها، فهو كقوله:

إنَّ الخلافة بعدَهم لذميمةٌ وخلائفٌ طُرُفٌ لممَّا أَحقِرُ[3]

وقرأ زيد بن علي: «آية» بالإفراد[4]. وقرا الأعمش والجحدري وحمزة والكسائي ويعقوب: «آياتٍ» بالجمع والنصب[5] على أنها عطف على «آيات» السابق الواقع اسماً؛ لأن «وفي خلقكم» معطوفٌ على «في السماوات» فكأنه قيل: وإن في خَلْقكم وما يبثُّ من دابة آياتٍ.

﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ أي: من شأنهم أن يُوقنوا بالأشياء على ما هي عليه.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بالجرِّ على إضمار «في»، وقد قرأ عبد الله بذِكْره[6].

(١) هو إبراهيم بن سفيان الزيادي، أبو إسحاق، قرأ على الأصمعي وغيره، له كتاب: شرح نكت سيبويه، وكتاب الأمثال. مات سنة (٢٤٩هـ). بغية الوعاة ١/ ٤١٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٢.
(٣) البيت لحميد بن ثور الهلالي كما في تفسير الطبري ٢١/ ٧٣، وهو مما أنشده الكسائي كما في معاني القرآن للفراء ٣/ ٤٥.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٢.
(٥) قراءة حمزة والكسائي ويعقوب في التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١.
(٦) البحر المحيط ٨/ ٤٣.

وجاء حذفُ الجارِّ مع إبقاء عمله كما في قوله:

إذا قيل أيُّ الناس شرٌّ قبيلة أشارتْ كليبٍ بالأكُفِّ الأصابعُ[١]

وحسَّن ما هنا ذكر الجارِّ في الآيتين قبلُ.

وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره «آيات»[٢] بعدُ، والمراد باختلافهما تَعاقُبُهما أو تفاوتُهما طولاً وقِصَراً، وقيل: اختلافهما في أنَّ أحدهما نور والآخر ظُلمة.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ عطف على «اختلاف». ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ جهة العلوّ، وقيل: السحاب، وقيل: الجِرْم المعروف بضربٍ من التأويل.

﴿مِن رِّزْقٍ﴾ من مطر، وسُمِّي رزقاً؛ لأنه سببه، فهو مجاز، ولو لم يؤوَّل صحَّ؛ لأنه في نفسه رزق أيضاً.

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بأن أخرج منها أصنافَ الزروع والثمرات والنبات. والسببية عادية اقتضتها الحِكمة.

﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يَبَسها وعرائها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التنمية عنها.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ من جهة إلى أُخرى، ومن حال إلى حال، وتأخيرُه عن إنزال المطر مع تقدُّمه عليه في الوجود، إما للإيذان بأنه آيةٌ مستقلة حيث لو رُوعي الترتيب الوجودي لربما تُوُهِّم أن مجموع تصريف الرياح وإنزال المطر آية واحدة، وإما لأن كون التصريف آيةً ليس بمجرد كونه مبدأً لإنشاء المطر، بل له ولسائر المنافع التي من جملتها سوق السُّفن في البحار.

وقرأ زيد بن علي وطلحة وعيسى: «وتصريف الريح» بالإفراد[٣].

﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾ بالرفع على أنه مبتدأ خبره ما تقدَّم من الجارِّ والمجرور، أعني: «في اختلاف» على ما سمعت. والجملة معطوفةٌ على ما قبلَها.

---

(١) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤٢٠، وسلف ٢٤/ ٣٤٠.

(٢) تفسير القرطبي ١٩/ ١٤٥، والبحر المحيط ٨/ ٤٣.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٨٠، وهي أيضاً قراءة حمزة والكسائي وخلف من العشرة. التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٢٢٣.

وقيل: إن «اختلاف» بالجرِّ عطف على «خَلْقِكم» المجرور بـ «في» قبله، و«آيات» عطف على «آياتٌ» السابق المرفوع بالابتداء. وفيه العطفُ على معمولي عاملين مختلفين. ومن الناس من يمنعه، وهم أكثرُ البصريين، ومنهم من يُجيزه، وهم أكثر الكوفيين، ومنهم من يفصِّل فيقول: هو جائزٌ في نحو قولك: في الدار زيدٌ والحجرةِ عمرو، وغير جائز في نحو قولك: زيد في الدار وعمرو الحجرةِ؛ لأن الأول يلي المجرورُ فيه العاطفَ، فقام العاطف مقامَ الجارِّ، والثاني لم يَلِ فيه المجرور العاطف، فكان فيه إضمار الجارِّ من غير عوض، وتمام الكلام في هذه المسألة في محلِّه.

وقيل: إن «اختلاف» عطف على المجرور قبلَه، و«آيات» خبر مبتدأ محذوف، أي: هي آيات؛ واختاره مَن لم يُجوِّز العطف على معمولي عاملين، ويقول بضَعْفِ حذف الجارِّ مع بقاء عمله وإن تقدَّمه ذكرُ جارٍّ.

وقال أبو البقاء: «آيات» مرفوع على التأكيد لـ «آيات» السابق، وهم يُعيدون الشيء إذا طال الكلام في الجملة للتأكيد والتذكير(١). وتُعقِّب بأن ذلك إنما يكون بعين ما تقدَّم، واختلافُ الصفات يدلُّ على تغاير الموصوفات، فلا وجهَ للتأكيد، وأيضاً فيه الفصل بين المعطوف المجرور والمعطوف عليه، وبين المؤكِّد والمؤكَّد، وهو إن جاز يُورث تعقيداً يُنافي فصاحة القرآن العظيم.

وقرأ: «آياتٍ» هنا بالنصب من قرأها هناك به(٢)، فهي مفعول لفعل محذوف، أي: أعني آيات.

وقيل: العاطف في قوله تعالى: «واختلاف» عَطَفَ «اختلاف» على المجرور بـ «في» قبلُ، وعطفها على اسم «إن». وهو مبنيٌّ على جواز العطف على معمولي عاملين.

وقال أبو البقاء: هي منصوبة على التأكيد والتكرير لاسم «إنَّ» نحو: إن بثوبك

---

(١) إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٤/ ٣١٤.
(٢) قرأ بالنصب حمزة والكسائي ويعقوب كما أشير إليه سابقاً.

دماً وبثوب زيدٍ دماً[١]. ومرَّ آنفاً ما فيه.

وقال بعضهم: إنها اسم «إنَّ» مضمرة، وهي قد تُضمر ويبقى عملُها؛ ذكر أبو حيان في «الارتشاف» في الكلام على: إنَّ من خير الناس أو خيرهم زيد: أن محمد بن يحيى بن المبارك اليزيدي ذهب إلى نصب خيرهم، ورَفْع زيد، فاسم «إنَّ» محذوفٌ، وأو خيرهم، منصوبٌ بإضمار «إنَّ» لدلالة «إنَّ» المذكورة، تقديره: إن من خير الناس زيداً أو إن[٢] خيرَهم زيد.

وقد أقرَّ الشاطبيُّ تخريجَ النصب في الآية على ذلك، لكنْ نَقَله السفاقسيُّ عن أبي البقاء[٣] ورَدَّه بأنَّ «إنَّ» لا تُضْمَر.

وقال ابن هشام في آخر الباب الرابع من «المغني»[٤]: إنه بعيد. والظاهر أنه لا بدَّ عليه من إضمار الجارِّ في «اختلاف» وحينئذ لا يخفى حاله.

وسائر القراءات مرويةٌ هنا عمّن رُويت عنه فيما تقدَّم، وتنكير «آيات» في الآيات للتفخيم كمًّا وكيفاً، والمعنى: إن المُنصِفين من العباد إذا نظروا في السماوات والأرض النظرَ الصحيح علموا أنها مصنوعةٌ وأنها لا بدَّ لها من صانع، فآمنوا بالله تعالى وأقرُّوا، وإذا نظروا في خَلْق أنفسهم وتنقُّلها من حال إلى حال وهيئة إلى أُخرى، وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيماناً وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدَّد في كلِّ وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بعد موتها وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً، وقَبولاً ودَبُوراً، وشدَّة وضعفاً، وحرارة وبرودة، عقلوا واستحكم عِلْمهم وخلصَ يقينهم، كذا في «الكشاف»[٥]، ومنه يعلم نكتة اختلاف الفواصل.

وفي «الكشف» أنه ذكر ما حاصله أنه على سبيل الترقِّي، وهو يوافق ما عليه الصوفية وغيرهم من أن الإيقان مرتبةٌ خاصة في الإيمان، ثم العقلُ لمَّا كان

---

(١) الإملاء ٤/ ٣١٤.

(٢) في (م): وإن، بدل: أو إن، والمثبت من الأصل، وهو الصواب.

(٣) الإملاء ٤/ ٣١٣.

(٤) ص٦٣٣.

(٥) ٣/ ٥٠٩.

مدارَهما ـ أي: الإيمان والإيقان، ونعني به العقل المؤيَّد بنور البصيرة جعله ـ لخُلوص الإيقان من اعتراء الشكوك من كلِّ وجه، ففي استحكامه كلُّ خير، ورُوعي في ترتيب الآيات ما رُوعي في ترتيب المراتب الثلاث من تقديم ما هو أقدمُ وجوداً، ولا يلزم أن تكون الآيةُ الثانية أعظمَ من الأُولى، ولا الثالثة من الثانية؛ لما ذكره من أن الجامع بين النظرين مُوقِن، وبين الثلاثة عاقل، على أنها كذلك في تحصيل هذا الغرض، فإن كانت أعظم من وجه آخر فلا بأس، فإن النظرَ إلى حال نفسه وما هو من نوعه ثم جنسِه من سائر الأناسيِّ والحيوان للقرب والتكرُّر وكَثْرة العدد أدخلُ في انتفاء الشك وحصول اليقين، وإن كان النظر في السماء والأرض أتمَّ دلالة على كمال القُدرة والعلم، فذلك لا يضرُّ ولا هو المطلوب هاهنا، ثم النظر إلى الاختلاف المذكور أدلُّ على استحكام ذلك اليقين من حيث إنه يتجدَّد حيناً فحيناً ويبعث على النظر والاعتبار كلما تجدَّد هذا. والتحقيق أن تمامَ النظر في الثاني يضطر إلى النظر في الأول، لأن السماوات والأرض من أسباب تكوُّن الحيوان بوجه، وكذلك النظر في الثالث يضطر إلى النظر في الأولين، أما على الأول فظاهر، وأما على الثاني فلأنه العلة الغائية فلا بدَّ من أن يكون جامعاً. انتهى. وهو كلام نفيس جدًّا.

وقال الإمام(١) في ترتيب هذه الفواصل: أظنُّ أنَّ سببه أنه قيل: إن كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين بل كنتم من طلاب الجزم واليقين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقلَّ من أن تكونوا من زمرة العاقلين، فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل.

ولا يخفى أنه فاته ذلك التحقيق، ولم يختر الترقِّي، وهو بالاختيار حقيق.

والمُغايرة بين ما هنا وما في سورة البقرة أعني: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ الآية [١٦٤] للتفنُّن، والكلام المُعجز مملوء منه.

وذكر الإمام في ذلك ما لا يهشُّ له السامع. فتأمل.

---

(١) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٥٩.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، وقوله تعالى: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ حال، عاملها معنى الإشارة نحو ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود:٧٢] على المشهور. وقيل: هو الخبر، و«آيات الله» بدل أو عطف بيان، وقوله سبحانه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال من فاعل «نتلوها» أو من مفعوله، أي: نتلوها مُحقِّين أو ملتبسة بالحقِّ، فالباء للملابسة، ويجوز أن تكون للسببية الغائية. والمراد بالآيات المشار إليها إما آيات القرآن أو السورة، أو ما ذُكر قبلُ من السماوات والأرض وغيرهما، فتلاوتها بتلاوة ما يدلُّ عليها. وفُسِّرت بالسرد، أي: نسردُها عليك.

وقال ابن عطية[1]: الكلام بتقدير مضاف، أي: نتلوا شأنها وشأن العبرة بها.

وقرئ: «يتلوها» بالياء[2] على أن الفاعل ضميره تعالى. والمراد على القراءتين تلاوتها عليه ﷺ بواسطة المَلَك عليه السلام.

﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ هو من باب قولهم: أعجبني زيدٌ وكَرَمُه، يُريدون: أعجبني كرمُ زيد، إلا أنهم عَدَلوا عنه للمبالغة في الإعجاب، أي: فبأيِّ حديث بعد هذه الآيات المتلوَّة بالحقِّ يؤمنون، وفيه دلالةٌ على أنه لا بيان أزيد من هذا البيان، ولا آية أدلّ من هذه الآية.

وتفخيمُ شأن الآيات من اسم الإشارة، وإضافتِها إلى الله عز وجل، وجَعْلِ «نتلوها» حالاً مع ضمير التعظيم، ثم تكريرِ الاسم الجليل للنكتة المذكورة، وإضافتها إليه بواسطة الضمير مرة أخرى.

وقد ذكر ذلك الزمخشري[3]، وتعقَّبه أبو حيان[4] بأنه ليس بشيء، لأن فيه من حيث المعنى إقحامَ الأسماء من غير ضرورة والعطفَ، والمراد غير العطف من إخراجه إلى باب البدل، لأن تقدير: كَرَمُ زيدٍ، إنما يكون في: أعجبني زيدٌ كَرَمُه،

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٨٠.
(٢) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٩.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٩.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٤.

بغير واو على البدل، وهذا قلبٌ لحقائق النحو، وإنما المعنى في المثال: إن ذات زيد أعجبته وأعجبه كرمه، فهما إعجابان لا إعجابٌ واحد.

وهو مبنيٌّ على عدم التعمُّق في فهم كلام جارِ الله. ومَن تعمَّق فيه لا يرى أنه قائل بالإقحام، وإنما بيان حاصل المعنى يُوهمه، وبين هذه الطريقة وطريقة البدل مُغايرة تامَّة، فقد ذكر أن فائدة هذه الطريقة ـ وهي طريقة إسناد الفعل إلى شيء والمقصود إسنادُه إلى ما عطف عليه ـ قوةُ اختصاص المعطوف بالمعطوف عليه من جهة الدلالة على أنه صار من التلبُّس بحيث يصحُّ أن يُسند أوصافه وأفعاله وأحواله إلى الأول قصداً لأنه بمنزلته، ولا كذلك البدل؛ لأنَّ المقصود فيه بالنسبة هو الثاني فقط، وهنا هما مقصودان.

فإن قلتَ: إذا لم يكن ذلك الوصف منسوباً للمعطوف عليه لزم إقحامُه كما قال أبو حيان، وما يذكر من المبالغة لا يدفع المحذور، وعلى فَرْضِ تسليمه فدلالتُه على ما ذكر بأيِّ طريقٍ من طرق الدلالة المشهورة.

أُجيبَ بأنه غير منسوب إليه في الواقع، لكنْ لمَّا كان بينهما ملابسةٌ تامة من جهةٍ ما، ككون الآيات هاهنا بإذنه تعالى أو مَرْضِيةً له عز وجل جعل كأنه المقصود بالنسبة، وكنى بها عن ذلك الاختصاص كنايةً إيمائية، ثم عطف عليه المنسوب إليه وجعل تابعاً فيها، وبهذا غاير البدل مُغايرة تامة غفل عنها المعترض، فالنسبة بتمامها مجازية. كذا قرَّره بعضُ المُحقِّقين(١).

وقال الواحدي: أي: فبأيِّ حديث بعد حديث الله(٢)، أي: القرآن، وقد جاء إطلاقه عليه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] وحسن الإضمار لقرينة تقدُّم الحديث، وقوله سبحانه: «وآياته» عطف عليه لتغايرهما إجمالاً وتفصيلاً، لأن الآيات هي ذلك الحديث ملحوظ الأجزاء، وإن أُريد ما بُيِّن فيه من الآيات والدلائل فليس من عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لأن الآياتِ ليست من

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١٦.

(٢) الوسيط ٤/ ٩٥، وفيه: ... بعد كتاب الله.

القرآن، وإنما وَجْهُ دلالتها وإيرادها منه، فيكون في هذا الوجه الدلالة أيضاً على حال البيان والمبين كما في الوجه الأول.

وقال الضحاك: أي: فبأيِّ حديث بعد توحيد الله، ولا يخفى أنه بظاهره مما لا معنى له، فلعله أراد: بعد حديث توحيده تعالى، أي: الحديث المتضمِّن ذلك، أو هو بعد تقدير المضاف من باب: أعجبني زيدٌ وكرمه.

وأيًّاما كان فالفاء في جواب شرط مقدَّر، والظرف صفة «حديث» وجُوِّز أن يكون متعلقاً بـ «يؤمنون» قُدِّم للفاصلة.

وقرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي: «تؤمنون» بالتاء الفوقانية[1]، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾ بحسب الظاهر والصورة، وإلا فالمرادُ هنا الكفار بخلاف ذلك.

وقرأ طلحة: «توقنون» بالتاء الفوقانية والقاف، من الإيقان[2].

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كثير الإفك، أي: الكذب ﴿أَثِيمٍ ۝٧﴾ كثير الإثم، والآية نزلت في أبي جهل، وقيل: في النضر بن الحارث، وكان يشتري حديثَ الأعاجم ويشغل به الناس عن استماع القرآن[3]، لكنها عامةٌ كما هو مقتضى كلٍّ، ويدخل من نزلت فيه دخولاً أوليًّا، و«أثيم» صفة «أفَّاك»، وقوله تعالى: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ أخرى له، وقيل: استئناف، وقيل: حال من الضمير في «أثيم».

وقوله سبحانه: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ حال من «آيات الله»، ولم يجوِّز جعلَه مفعولاً ثانياً لـ «يسمع»؛ لأن شرطَه أن يكون ما بعدَه مما لا يسمع، كسمعت زيداً يقرأ.

والظاهر أن المرادَ بـ «تتلى» الاستمرار، لأنه المناسب للاستبعاد المدلول عليه بقوله عز وجل ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ فإن «ثم» لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات، وهي للتراخي الرُّتبي، ويمكن إبقاؤه على حقيقته إلا أن الأولَ أبلغُ وأنسبُ بالمقام، ونظير ذلك في الاستبعاد قول جعفر بن عُلْبَة:

---

(١) التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٤.

(٣) ينظر تفسير القرطبي ١٩/ ١٤٦.

لا يكشف الغماء إلا ابن حُرَّة يرى غَمرات الموتِ ثم يزورها[١]

والإصرار على الشيء: ملازمته وعدم الانفكاك عنه، من الصرّ، وهو الشَّدُّ، ومنه: صُرَّة الدراهم، ويقال: صرَّ الحمارُ أُذنيه ـ ضمَّهما ـ صرًّا، وأصرَّ الحمار، ولا يقال: أُذنيه، على ما في «الصحاح»[٢]، وكأنَّ معناه حينئذ: صار صارًّا أُذنيه.

والمراد هنا: ثم يُقيم على كُفره وضلاله ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بالآيات، وهو حالٌ من ضمير «يُصر»، وقوله سبحانه: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ حال بعد حال، أو حال من ضمير «مستكبراً»، وجُوِّز الاستئناف، و«كأنْ» مخفَّفة من «كأنَّ» بحذف إحدى النونين، واسمها ضمير الشأن، وقيل: لا حاجةَ إلى تقديره كما في «أن» المفتوحة، والمعنى: يُصِرُّ مستكبراً مثلَ غير السامع لها.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑧﴾ على إصراره ذلك، والبشارة في الأصل: الخبرُ المُغيِّر للبَشَرة خيراً كان أو شرًّا، وخصَّها العُرف بالخبر السارّ، فإن أُريد المعنى العُرفي فهو استعارةٌ تهكُّميَّة، أو هو من قَبيل:

تحيةُ بينهم ضربٌ وجيعُ[٣]

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ وإذا بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ بادر إلى الاستهزاء بالآيات كلِّها ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه، وجُوِّز أن يكون المعنى: وإذا عَلِمَ من آياتنا شيئاً يُمكن أن يتشبَّث به المعاندُ ويجد له محملاً يتسلَّق به على الطعن والغميزة افترصه[٤] واتَّخذ آياتِ الله تعالى هُزواً، وذلك نحو اعتراض ابن الزِّبعرى في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨] ومغالطته رسول الله ﷺ وقوله على ما في بعض الروايات:

---

(١) البيت في الحماسة البصرية ١/ ٤٦، وسلف ٢١/ ١٦٦.

(٢) الصحاح (صرر).

(٣) الكتاب ٢/ ٣٢٣، وخزانة الأدب ٩/ ٢٦٥، وسلف ٤/ ٦٢ وصدره: وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيل. قال البغدادي: وهذا البيت نسبه شراح أبيات الكتاب وغيرهم لعمرو بن معد يكرب الصحابي، ولم أره في شعره.. وينظر تتمة كلامه في الخزانة.

(٤) أي: انتهزه. القاموس (فرص).

خصمتك[1]. فضمير «اتخذها» على الوجهين للآيات، والفرق بينهما أن «شيئاً» على الثاني فيه تخصيصٌ؛ لقرينة «اتخذها هزواً» إذْ لا يحتمل إلا ما يحسن أن يُخيَّل فيه ذلك، ثم يجعله دستوراً للباقي فيقول: الكلُّ من هذا القَبيل، وفرِّق بين الوجهين أيضاً بأن في الأول الاتخاذ قبل التأمُّل، وفي الثاني بعدَه وبعدَ تمييز آية عن أخرى. وقيل: الاستهزاء بما علمه من الآيات إلا أنه أَرجع الضمير إلى الآيات، لأنَّ الاستهزاء بواحدة منها استهزاءٌ بكلِّها لما بينها من التماثل.

وجُوِّز أن يرجع الضمير إلى «شيء»، والتأنيث لأنه بمعنى الآية، كقول أبي العتاهية:

نفسي بشيءٍ من الدنيا معلَّقةٌ   اللهُ والقائمُ المهديُّ يَكفيها[2]

يعني الشيء، وأراد به عُتْبَة جاريةً للمهدي من حظاياه، وكان أبو العتاهية يهواها فقال ما قال.

وقرأ قتادة ومطر الورَّاق: «عُلِّم» بضمِّ العين وشدِّ اللام مبنيًّا للمفعول[3].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى كلِّ أفَّاك من حيث الاتِّصاف بما ذُكر من القبائح، والجمع باعتبار الشُّمول للكلِّ كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] كما أن الإفراد فيما سبق من الضمائر باعتبار كلِّ واحد واحد، وأداة البعد للإشارة إلى بُعد منزلتهم في الشرِّ ﴿لَهُمْ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾ وصف العذاب بالإهانة توفية لحقِّ استكبارهم واستهزائهم بآيات الله عز وجل.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: من قُدَّامهم، لأنهم متوجِّهون إليها، أو من خِلْفهم لأنهم مُعْرِضون عن الالتفات إليها والاشتغال عمَّا يُنجيهم منها، مُقبلون على الدنيا والانهماك في شهواتها، والوراء تُستعمل في هذين المعنيين، لأنها اسمٌ للجهة التي يُواريها الشخص فتعمُّ الخَلْف والقُدَّام. وقيل في توجيه الخَلفية: إن جهنم لمَّا كانت تتحقَّق لهم بعد الأجل جعلت كأنها خَلْفهم.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١٠.

(٢) ديوان أبي العتاهية ص٦٦٨، ومعاهد التنصيص ٢/ ٢٩٥.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٨.

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم﴾ ولا يدفع ﴿مَّا كَسَبُوا۟﴾ أي: الذي كسبوه من الأموال والأولاد ﴿شَيْـًٔا﴾ من عذاب الله تعالى، أو شيئاً من الإغناء، على أنَّ «شيئاً» مفعولٌ به، أو مفعول مُطلق.

﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟﴾ أي: الذي اتَّخذوه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: الأصنام. وجوِّز أن تُفسَّر «ما» بما تعمُّها وسائر المعبودات الباطلة، والأول أظهر.

وجُوِّز في «ما» في الموضعين أن تكون مصدرية، وتوسيط حرفي النفي بين المعطوفين مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعاً = مبنيٌّ على زعمهم الفاسد حيث كانوا يَطمعون في شفاعتهم، وفيه تهكُّم.

﴿وَلَهُمْ﴾ فيما وراءهم من جهنم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ لا يُقادر قَدره.

﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآن، كما يدلُّ عليه ما بعد، وكذا ما قبل كـ«يسمع آيات الله»، و«إذا علم من آياتنا»، و«تلك آيات الله نتلوها» ﴿هُدًى﴾ في غاية الكمال من الهداية، كأنه نفسها ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني القرآن أيضاً على أنَّ الإضافة للعهد، وكان الظاهر الإضمار لكن عدل عنه إلى ما في النظم الجليل لزيادة تشنيع كُفرهم به وتفظيع حالهم؛ وجوز أن يُراد بالآيات ما يشمله وغيره ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ من أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ بالرفع صفة «عذاب» أُخَر للفاصلة.

وقرأ غيرُ واحد من السبعة: «أليم» بالجرِّ على أنه صفة «رجز»[1]. وجَعْلُه صفةَ «عذاب» أيضاً والجرُّ للمجاورة مما لا ينبغي أن يُلتفت إليه.

وقيل على قراءة الرفع: إن الرِّجْز بمعنى الرِّجْس الذي هو النجاسة، والمعنى: لهم عذاب أليم من تجرُّع رِجس، أو شرب رجس، والمراد به الصديد الذي يتجرَّعه الكافر ولا يكاد يُسيغه. ولا داعي لذلك كما لا يخفى.

وتنوين «عذاب» في المواقع الثلاثة للتفخيم، ورفعه إما على الابتداء، وإما على الفاعلية للظرف.

---

(١) قرأ ابن كثير ويعقوب وحفص برفع الميم، وقرأ الباقون بخفضها. التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/٣٤٩.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ بأنْ جَعلَه أملسَ السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ بتسخيره تعالى إياه وتسهيل استعمالها فيما يراد بها، وقيل: بتكوينه تعالى أو بإذنه عز وجل. وسياق الامتنان يقتضي أن يكون المعنى: لتجري الفلك فيه وأنتم راكبوها.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارة والغوص والصيد وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ ولكي تشكروا النعم المترتبة على ذلك، وهذا ـ أعني: «الله الذي سخر» إلخ ـ ذكر تتميماً للتفريع، ولهذا رتّب عليه الأغراض العاجلة، فإنه مما يستوجب الشكر غالباً للكافر أيضاً، فكأنه قيل: تلك الآيات أولى بالشُّكر، ولهذا عقَّب بما يعمُّ القسمين، أعني قوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الموجودات، بأن جعل فيها منافع لكم منها ظاهرة ومنها خفيَّة، وعقَّب بالتفكُّر لينبِّه على أن التفكُّر هو الذي يؤدِّي إلى ما ذكر من الأولوية، ويدلّ به على أن التفكُّر ملاكُ الأمر في ترتيب الغرض على ما جعل آية من الإيمان والإيقان والشُّكر.

﴿جَمِيعًا﴾ حال من «ما في السماوات وما في الأرض» أو توكيدٌ له. وقوله تعالى: ﴿مِّنْهُ﴾ حال من ذلك أيضاً، والمعنى: سخَّر هذه الأشياء جميعاً كائنة منه وحاصلة من عنده، يعني أنه سبحانه مُكوِّنها ومُوجِدُها بقدرته وحكمته، ثم مُسخِّرها لخلقه.

وجُوِّز فيه أَوْجُهٌ أُخَرُ: الأول: أن يكون خبر مبتدأ محذوف، فقيل: «جميعاً» حينئذ حال من الضمير المستتر في الجارِّ والمجرور بناءً على جواز تقدُّم الحال على مثل هذا العامل، أو من المبتدأ بناءً على تجويز الحال منه، أي: هي جميعاً منه تعالى. وقيل: «جميعاً» على ما كان، ويلاحظ في تصوير المعنى، فالضمير المبتدأ يُقدَّر بعده، ويعتبر رجوعه إلى ما تقدَّم بقيد «جميعاً». والجملة على القولين استئناف جيء به تأكيداً لقوله تعالى: «سخر»، أي: إنه عز وجل أوجدها ثم سخَّرها، لا أنها حصلت له سبحانه من غيره كالملوك.

الثاني: أن يجعل «ما في السماوات» مبتدأ ويكون هو خبره، و«جميعاً» حال من الضمير المستتر في الجارِّ والمجرور الواقع صلة، ويكون «وسخَّر لكم» تأكيداً للأول، أي: سخَّر وسخَّر، وفي العطف إيماءٌ إلى أن التسخير الثاني كأنه غير الأول دلالة على أن المتفكِّر كلَّما فكَّر يزداد إيماناً بكمال التسخير والمِنَّة عليه،

وجملة «ما في السماوات» إلخ مستأنفة لمزيد بيان القُدرة والحِكمة.

واعترض بأنه إن أُريد التأكيد اللغوي فهو لا يخلو من الضعف، لأن عطف مثله في الجمل غير معهود، وإن أُريد التأكيد الاصطلاحي كما قيل به في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣-٤] فهو مخالفٌ لما ذكره ابن مالك في «التسهيل» من أن عطفَ التأكيد يختصُّ بـ «ثم»، وقال الرضي: يكون بالفاء أيضاً، وهو هاهنا بالواو[١]، ولم يُجوِّزه أحدٌ منهم، وإن لم يذكروا وجهَ الفرق، على أنه قد تقرَّر في المعاني أنه لا يجري في التأكيد العطف مطلقاً لشدَّة الاتصال. واعترض أيضاً بأن فيه حذفَ مفعول «سخر» من غير قرينة، وهذا كما ترى.

الثالث: أن يكون «ما في الأرض» مبتدأ و«منه» خبره، ولا يخفى أنه ضعيفٌ بحسب المَساق.

وأخرج ابن المنذر من طريق عكرمة أن ابن عباس رضي الله عنهما لم يكن يفسِّر هذه الآية[٢]. ولعله إنْ صح محمولٌ على أنه لم يَبسط الكلام فيها؛ فقد أخرج ابن جرير عنه أنه قال: فيها كلُّ شيء هو من الله تعالى[٣].

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حُميد وابن المنذر والحاكم ـ وصحَّحه ـ والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن طاوس قال: جاء رجلٌ إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله: مِمَّ خُلِقَ الخَلْق؟ قال: من الماء والنور والظُّلمة والريح والتراب، قال: فممَّ خُلِقَ هؤلاء؟ قال: لا أدري، ثم أتى الرجلُ عبدَ الله بن الزبير فسأله، فقال مثلَ قول عبد الله بن عمرو، فأتى ابنَ عباس رضي الله عنهما فسأله: مم خُلِقَ الخَلْق؟ قال: من الماء والنور والظُّلمة والريح والتراب. قال: فمِمَّ خلق هؤلاء؟ فقرأ ابن عباس: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ) فقال الرجل: ما كان ليأتي بهذا إلا رجل من أهل بيت النبي ﷺ[٤].

---

(١) حاشية الشهاب ٨/ ١٨.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٤.
(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٧٩.
(٤) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢١٣، والمستدرك ٢/ ٤٥٢، والأسماء والصفات (٨٢٩).

واختلف أهل العلم فيما أراد ابن عباس رضي الله عنهما بذلك، فقال البيهقي: أراد أنَّ مصدرَ الجميع منه تعالى، أي: من خَلْقه وإبداعه واختراعه؛ خَلَقَ الماءَ أولاً، وما شاء عز وجل من خَلْقِهِ لا عن أصل ولا عن مثالٍ سبق، ثم جعله تعالى أصلاً لما خلق بعده، فهو جل شأنه المُبدع، وهو سبحانه البارئ لا إله غيره ولا خالق سواه[1]. اهـ. وعليه جميع المُحدِّثين والمفسرين ومَن حذا حذوهم.

وقال الشيخ إبراهيم الكوراني من الصوفية: إن المخلوقات تعيُّنات الوجود المُفاض الذي هو صورة النفس الرحماني المسمَّى بالعَماء، وذلك أن العماء قد انبسط على الحقائق التي هي أمور عدمية متميزة في نفس الأمر، والانبساط حادثٌ، والعماء من حيث اقترانه بالماهيات غير ذات الحقّ تعالى، فإنه سبحانه الوجودُ المحض الغير المُقترن بها، فالموجودات صورٌ حادثة في العماء قائمةٌ به، والله تعالى قَيُّومها لأنه جل وعلا الأول الباطن المُمِدُّ لتلك الصور بالبقاء، ولا يلزم من ذلك قيام الحوادث بذات الحق تعالى، ولا كونه سبحانه مادة لها؛ لأن وجوده تعالى مجرد عن الماهيات غير مقترن بها، والمتعيِّن بحسبها هو العَماء الذي هو الوجود المفاض، فأراد ابن عباس أنَّ الأشياءَ جميعاً منه تعالى، أي: من نوره سبحانه المُضاف الذي هو العماء والوجود المفاض منه تعالى بإيجاده جل شأنه، وبهذا ينطبق الجواب على السؤال من غير تكلُّف ولا محذور، ولو كان مرادُ ابن عباس مجرَّد ما ذكره البيهقي من أن مصدرَ الجميع من خَلْقه تعالى كان يكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦] لكن السؤال إنما وقع بـ: ممَّ، ووقع الجواب بـ: منه في تلاوته الآية، فالظاهر أن ما فَهِمه السائل من تلاوته رضي الله عنه ليس مجردَ ما ذكره، بقرينة مَدْحه بقوله: ما كان ليأتي بهذا.. إلخ، فإن ما ذكره البيهقي يعرفه كلُّ من آمن بقوله تعالى: «الله خالق كل شيء» فلا يظهر حينئذ وجهٌ لقول كلٍّ من ابن عمرو وابن الزبير: لا أدري، فإنهما من أفضل المؤمنين بأنَّ الله تعالى خالقُ كلِّ شيء، بل ما فهمه هو ما أشرنا إليه. اهـ. وعليه عامة أهل الوحدة.

وأجاب الأولون بأنَّ مرادَ ابن عباس قطع التسلسل في السؤال بعد ذكر مادةِ

---

(١) الأسماء والصفات عقب الخبر (٨٢٩) وفيه: خَلَقَ الماءَ أولاً أو الماء وما شاء من خَلْقِه...

لبعضها، بأنَّ مرجع الأمر أن الأشياء كلَّها خُلقت بقدرته تعالى لا من شيء، وهو كلامٌ حكيم يُمدح قائله لم يهتد إليه ابن الزبير وابن عمرو، ولا يُعكر على هذا قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ [الطور: ٣٥] لما قاله المفسِّرون فيه، وسيأتي إن شاء الله تعالى في محلِّه. فتأمل ذاك، والله تعالى يتولَّى هداك.

وقد أورد الحسين بن عليٍّ بن واقد في مجلس الرشيد هذه الآيةَ ردًّا على بعض النصارى في زعمه أن قوله تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] يدلُّ على ما يزعمه فيه عليه السلام من أنه ابنُ الله، سبحانه وتعالى عمَّا يَصِفون.

وحكى أبو الفتح وصاحب «اللوامح» عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو والجحدري وعبد الله بن عُبيد بن عُمير أنهم قرؤوا: «مِنَّةً» بكسر الميم وشدِّ النون ونصب التاء على أنه مفعول له(١)، أي: سخَّر لكم ذلك نعمةً عليكم، وحكاها عن ابن عباس أيضاً ابن خالويه(٢). لكن قال أبو حاتم(٣): إن سند هذه القراءة إليه مظلم، فإذا صحَّ السندُ يمكن أن يُقال فيما تقدَّم من حديث طاوس: إنه ذكر الآية على قراءة الجمهور، ويحتمل أن له قراءتين فيها.

وقرأ مسلمة بن محارب كذلك إلا أنه ضمَّ التاء على تقدير: هو أو هي مِنَّةٌ، وعنه أيضاً فتح الميم وشدّ النون وهاءُ الكناية عائدة على الله تعالى(٤)، أي: إنعامه، وهو فاعل «سخَّر» على الإسناد المجازي، كما تقول: كَرَمُ الملك أنعشني، أو هو خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا ـ أو هو ـ مَنُّه تعالى، وجُوِّزت الفاعلية في قراءته الأولى، وتذكير الفعل لأن الفاعل ليس مؤنَّثاً حقيقيًّا مع وجود الفاصل. والوجهُ الأول أَولى وإن كان فيه تقدير.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمةَ الشأن كثيرة العدد ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ في بدائع صُنعه تعالى وعظائم شأنه جل شأنه، فإنَّ ذلك يجرُّهم إلى الإيمان والإيقان والشُّكر.

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٦٢.
(٢) القراءات الشاذة ص١٣٨.
(٣) كما في البحر المحيط ٨/ ٤٥.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٨٢.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾ حُذِف المَقول لدلالة «يغفروا» عليه فإنه جوابٌ للأمر باعتبار تعلُّقه به لا باعتبار نفسه فقط، أي: قل لهم: اغفروا يغفروا ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أي: يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقَّعون وقائعه تعالى بأعدائه، ونقمتَه فيهم، فالرجاء مجازٌ عن التوقُّع، وكذا الأيام مجازٌ عن الوقائع من قولهم: أيام العرب، لوقائعها، وهو مجازٌ مشهورٌ، ورُوي ذلك عن مجاهد. أَوْ: لا يأملون الأوقات التي وقَّتها الله تعالى لثواب المؤمنين ووعدهم الفوزَ فيها.

والآية قيل: نزلت قبلَ آية القتال ثم نُسخت بها.

وقال بعضهم: لا نسخَ، لأن المرادَ هنا تركُ النزاع في المُحقَّرات والتجاوز عن بعض ما يُؤذي ويُوحش، وحكى النحاس[1] والمهدوي عن ابن عباس أنها نزلت في عمر رضي الله عنه؛ شتمه مُشركٌ[2] بمكة قبل الهجرة، فهمَّ أنْ يبطشَ به فنزلَتْ[3]. وروي ذلك عن مقاتل، وهذا ظاهرٌ في كونها مكية كأخواتها. وإرادة فَهْم أن يبطش به بعد الهجرة لأنَّ المسلمين بمكة قبلها عاجزون مَقْهورون لا يُمكنهم الانتصار من المشركين، والعاجز لا يؤمر بالعفو، والصفح غيرُ ظاهر = مُحتاجٌ إلى نقل، ودوام عجز كلٍّ من المسلمين غير معلوم، بل مَنْ وقف على أحوال أبي حفص رضي الله عنه لا يتوقف في أنه قادرٌ على ما همَّ به لا يُبالي بما يترتَّب عليه.

وهذا أَولى في الجواب من أن يقال: إنَّ الأمر بفعل ذلك بينه وبين الله تعالى بقلبه ليُثاب عليه، نعم قيل: إن النبيَّ ﷺ وأصحابه نزلوا في غزوة بني المصطلق على بئر يقال له: المُريسيع، فأرسل ابنُ أُبيٍّ غُلامَه لِيستقي، فأبطأ عليه، فلما أتاه قال له: ما حَبَسك؟ قال: غلام عُمر، قعد على طرف البئر فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قُرَبَ النبيِّ ﷺ وقُرَبَ أبي بكر رضي الله عنه. فقال ابنُ أُبَيّ: ما مَثَلُنا ومَثَل هؤلاء إلا كما قيل: سَمِّن كلبك يأكلك، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فاشتملَ سيفَه يريدُ التوجُّه إليه، فأنزل الله تعالى الآية[4].

---

(١) في الناسخ والمنسوخ (٧٩٥).

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: قيل: هو من غفار.

(٣) قال ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨١: وهذا لم يصح.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص٤٠١.

وحكاه الإمام[1] عن ابن عباس، وهو يدلُّ على أنها مدنية. وكذا ما رُوي عن ميمون بن مهران قال: إنَّ فنحاص اليهودي قال لما أنزل الله تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥]: احتاجَ ربُّ محمد! فسمع بذلك عمر رضي الله عنه فاشتمل سيفَه وخرج، فبعث النبيُّ ﷺ في طلبه حتى ردَّه، ونزلت الآية[2].

﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ تعليلٌ للأمر بالمغفرة، وجُوِّز أن يكون تعليلاً للأمر بالقول، لأنه سببٌ لامتثالهم المُجازي عليه، والمراد بالقوم: المؤمنون الغافرون، والتنكير للتعظيم. ولفظ القوم في نفسه اسمُ مدح على ما يُرشد إليه الاشتقاق والاستعمال في نحو: يا ابن القوم.

وفي هذا التنكير كمالُ التعريف والتنبيه على أنهم لا يَخْفَوْن نُكِّروا أو عُرِّفوا، مع العلم بأن المجزيَّ لا يكون إلا العامل، وهو الغافر هاهنا، أي: أُمروا بذلك ليجزي اللهُ تعالى يومَ القيامة قوماً أيّما قوم، وقوماً مخصوصين بما كسبوا في الدنيا من الأعمال الحسنة التي من جُملتها الصبرُ على أذيَّة الكفار والإغضاءُ عنهم بكظم الغيظ واحتمالِ المكروه، ما لا يُحيط به نِطاق البيان من الثواب العظيم.

ومنهم من خصَّ ما كسبوه بالمغفرة والصبر على الأذيَّة، و«ما» في الوجهين موصولة، وجُوِّز أن تكون مصدرية، والباء للسببية، أو للمقابلة، أو صلة «يجزي».

وجوز أن يراد بالقوم الكفرة، وبما كسبوا سيئاتهم التي من جملتها إيذاؤهم المؤمنين، والتنكير للتحقير. وتُعُقِّب بأنَّ مطلق الجزاء لا يصلح تعليلاً للأمر بالمغفرة لِتحقُّقه على تقديري المغفرة وعَدَمِها، فلا بدَّ من تخصيصه بالكلِّ بأنْ لا يتحقَّق بعضٌ منه في الدنيا، أو بما يصدر عنه تعالى بالذات، وفي ذلك من التكلُّف ما لا يخفى.

وأن يُراد كلا الفريقين، والتنكير للشيوع، وتُعُقِّب بأنه أكثرُ تكلُّفاً وأشدُّ تمحُّلاً.

---

(١) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٦٣.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٤٠١-٤٠٢، وتفسير الرازي ٢٧/ ٢٦٣.

والذي يشهد للوجه السابق ما رُوي عن سعيد بن المسيَّب قال: كنا بين يدي عمر رضي الله عنه فقرأ قارئ هذه الآيةَ، فقال: ليجزي عمر بما صنع[1].

وقرأ زيد بن عليٍّ وأبو عبد الرحمن والأعمش وأبو خُليد وابن عامر وحمزة والكسائي: «لنجزي» بنون العظمة[2].

وقُرئ: «لِيُجزَى» بالياء والبناء للمفعول، «قوم» بالرفع على أنه نائب الفاعل[3].

وقرأ شيبة وأبو جعفر بخلاف عنه كذلك إلا أنهما نصبا «قوماً»[4]، ورُوي ذلك عن عاصم[5]، واحتجَّ به من يُجوِّز نيابَة الجارِّ والمجرور عن الفاعل مع وجود المفعول الصريح فيقول: ضُرب بسوط زيداً، فـ : بما كسبوا نائب الفاعل هاهنا، ولا يُجيز ذلك الجمهور.

وخُرِّجت هذه القراءة على أن القائم مقام الفاعل ضميرالمصدر، أي: ليجزى هو، أي: الجزاء. ورُدَّ بأنه لا يُقام مقامه عند وجود المفعول به أيضاً على الصحيح، وأجازه الكوفيون على خلاف في الإطلاق والاستحسان.

أو على أنه ضمير المفعول الثاني وهو الجزاء بمعنى المُجْزَى به، كما في قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [البينة:٨] وأضمر لدلالة السياق كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ [النساء:١١] والمفعول الثاني في باب أعطى يقوم مقامَ الفاعل بلا خلاف، وهذا من ذاك. وأبو البقاء[6] اعتبر الخير بدل الجزاء المذكور.

أو على أن «قوماً» منصوب بـ : أعني، أو جزى، مضمراً لدلالة المجهول على أن ثَمَّ جازياً، واختاره أبو حيان[7]. و«ليُجْزَى» حينئذ من باب يُعطي ويمنع،

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١١.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٥، وقراءة ابن عامر وحمزة والكسائي ـ وهي قراءة خلف ـ في التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧٢.

(٣) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥١١.

(٤) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٧٢.

(٥) ذكرها ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٧٢، وهي غير المشهورة عن عاصم.

(٦) في إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣١٥.

(٧) في البحر المحيط ٨/ ٤٥.

و: حيل بين العَيْر والنَّزَوان[١]، فمعناه: ليفعل الجزاء، ويكون هناك جملتان.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ﴾ لا يكاد يسري عملٌ إلى غير عامله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ مالك أُموركم ﴿تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ فيجازيكم على أعمالكم حسبما تقتضيه الحكمة، خيراً على الخير وشرًّا على الشر، والجملة مستأنفة لبيان كيفية الجزاء.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو التوراة، على أن التعريف للعهد، وجُوِّز جعله للجنس ليشمل الزبور والإنجيل، ولا يضرُّ في ذلك كون الزبور أدعية ومناجاة والإنجيل أحكامه قليلة جدًّا، ومعظم أحكام عيسى عليه السلام من التوراة، لأن إيتاء الكتاب مطلقاً مِنَّةٌ.

﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ القضاء وفصل الأمور بين الناس، لأن المُلك كان فيهم، واختاره أبو حيان[٢]، أو الفقه في الدين، ويقال: لم يتَّسع فقه الأحكام على نبيٍّ ما اتَّسع على لسان موسى عليه السلام، أو الحكم النظرية الأصلية والعملية الفرعية.

﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ حيث كَثُر فيهم الأنبياء عليهم السلام ما لم يكثر في غيرهم.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المستلذَّات الحلال، وبذلك تتمُّ النعمة، وذلك كالمَنِّ والسلوى ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ حيث آتيناهم ما لم نُؤْتِ غيرهم من فَلْق البحر وإظلال الغمام ونظائرهما، فالمرادُ تفضيلهم على العالمين مطلقاً من بعض الوجوه لا من كلِّها، ولا من جهة المرتبة والثواب، فلا يُنافي ذلك تفضيلَ أمة محمد ﷺ عليهم من وجه آخر ومن جهة المرتبة والثواب.

وقيل: المراد بـ «العالمين» عالَمو زمانهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ دلائلَ ظاهرةً في أمر الدين، فـ «من» بمعنى «في»، والبينات: الدلائل، ويندرج فيها معجزات موسى عليه السلام، وبعضهم فسَّرها بها، وعن ابن عباس: آيات من أمر النبي ﷺ وعلامات مُبيِّنة لِصدقه عليه الصلاة والسلام، ككونه يُهاجر من مكة إلى يثرب، ويكون أنصاره أهلَها، إلى غير ذلك

---

(١) مثل يُضرب في منع الرجل مراده. وسلف ١/ ٢٣٣ و ٢٢/ ١٤٥.
(٢) في البحر المحيط ٨/ ٤٥.

مما ذكر في كتبهم ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ﴾ في ذلك الأمر ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقيقة الحال، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجباً لرسوخه ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ عداوةً وحسداً لا شكًّا فيه. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بالمؤاخذة والجزاء ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ من أمر الدين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ أي: سُنَّة وطريقة، مِنْ شَرَعه: إذا سَنَّه ليسلك، وفي «البحر»: الشريعة في كلام العرب: الموضعُ الذي يَرِدُ منه الناس في الأنهار ونحوها، فشريعة الدين من ذلك من حيث يرد الناس منها أمر الله تعالى ورحمته والقرب منه عز وجل[1]. وقال الراغب: الشرعُ مصدر، ثم جعل اسماً للطريق النهج، فقيل له: شرعٌ وشِرعة وشريعة، واستُعير ذلك للطريقة الإلهية من الدين، ثم قال: قال بعضُهم: سُمِّيت الشريعة شريعة تشبيهاً بشريعة الماء من حيث إن مَنْ شرع فيها على الحقيقة والصِّدق رَوِي وتطهَّر. وأعني بالرِّيِّ ما قال بعض الحكماء: كنت أشرب فلا أَروى فلما عَرفتُ الله تعالى رويتُ بلا شرب، وبالتطهُّر ما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣][2]. والظاهر هنا المعنى اللغوي، والتنوين للتعظيم، أي: شريعة عظيمة الشأن.

﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: أمر الدين. وجوَّز أبو حيان كونَه مصدر «أَمَرَ»، والمراد: من الأمر والنهي[3]، وهو كما ترى.

﴿فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: آراء الجهَّال التابعة للشهوات، والمراد بهم ما يعمُّ كلَّ ضالٍّ، وقيل: هم جُهَّال قريظة والنضير. وقيل: رؤساء قريش؛ كانوا يقولون له ﷺ: ارجع إلى دين آبائك.

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ من الأشياء، أو شيئاً من الإغناء إنِ اتَّبعتهم، والجملة مستأنفة مبينةٌ لعلَّةِ النَّهي ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ لا يُواليهِمْ ولا يتَّبع أهواءَهم إلَّا مَنْ كانَ ظالماً مثلَهم.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٦، وفيه: . . . الموضع الذي يرد فيه الناس. . .
(٢) مفردات ألفاظ القرآن (شرع).
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٦.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ الذين أنتَ قدوتهم، فَدُمْ على ما أنتَ عليه مِنْ تولِّيه سبحانه خاصَّة، والإعراضِ عمَّا سِواهُ عزَّ وجلَّ بالكُليَّةِ.

﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآنُ ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ فإنَّ ما فيه مِنْ معالمِ الدِّين وشعائرِ الشَّرائع بمنزلةِ البصائرِ في القلوبِ. وقيل: الإشارةُ إلى اتِّباعِ الشريعةِ، والكلام من بابِ التشبيهِ البليغِ. وجمع الخبر على الوجهينِ باعتبارِ تعدُّدِ ما تضمَّنه المبتدأُ، واتّباع مصدرٌ مضافٌ فيعمُّ ويخبَرُ عنه بمتعدِّدٍ أيضاً، وقُرِئَ: «هذه»[١] أي: الآياتُ.

﴿وَهُدًى﴾ جليلٌ مِنْ ورطةِ الضَّلالةِ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمةٌ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ من شأنهم الإيقانُ بالأمورِ.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إلى آخرِه، استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ حالِ المسيئين والمحسنين إثرَ بيانِ حال الظالمين والمتقين، و«أَمْ»: منقطعةٌ، وما فيها من معنى «بل» للانتقالِ من البيانِ الأولِ إلى الثاني، والهمزة: لإنكارِ الحُسبانِ، على معنى أنَّه لا يليقُ ولا ينبغي لظهورِ خلافِهِ.

والاجتراحُ: الاكتسابُ، ومنه الجارحةُ للأعضاءِ التي يُكتَسبُ بها، كالأيدي، وجاء: هو جارحةُ أهلِهِ، أي: كاسبُهمْ. وقال الراغبُ: الاجتراحُ: اكتسابُ الإثمِ، وأصلُهُ مِنَ الجراحةِ، كما أنَّ الاقترافَ مِنْ قَرَفَ القرحة[٢]. والظَّاهرُ تفسيرُهُ هاهنا بالاكتسابِ لمكان «السيئاتِ»، والمرادُ بها على ما في «البحرِ»[٣]: سيئاتُ الكفرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ سادٌّ مسدَّ مفعولي الحسبانِ، والجعل: بمعنى التصييرِ، وهم مفعولُه الأول، وقولُه سبحانَه: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مفعولُه الثاني، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿سَوَآءً﴾ بدلٌ من الكافِ بناءً على أنَّها اسمٌ بمعنى مثل، وقولُه تعالى: ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ فاعلُ «سواءً» أُجري مُجرى مستوٍ كما قالوا: مررتُ برجلٍ سواءً هو والعَدَمُ، وضميرُ الجمعِ للمجترحين، والمعنى على إنكار حُسبان جَعْلِ مَحْيَا المجترحينَ ومماتِهم مستويين مثلهما للمؤمنين، ومصبُّ الإنكارِ

(١) الكشاف ٣/ ٥١١، وهي قراءة شاذة.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن (جرح)، ومعنى قَرَفَ القرحة: قشرها، وذلك إذا يبست. اللسان (قرف).
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٧.

استواءُ ذلك، فإن المؤمنينَّ تتوافقُ حالاهم لأنَّهم مرحومون في المحيا والمماتِ، وأولئك تتضادُّ حالاهم فإنهم مرحومون حياةً لا موتاً.

وجُوِّز أن يكون «سواءً» حالاً من الضميرِ في الكافِ بناءً على ما سمعتَ مِنْ معناها.

وتُعقِّب بأنها اسمٌ جامد على صورة الحرف فلا يصحُّ استتار الضمير فيها، وقد صرَّح الفارسي(١) بمنع ذلك، نعم يجوز أن يكون «كالذين»جارًّا ومجروراً في موضع المفعول الثاني، و«سواءً» حالاً من الضمير المُستتر فيه.

وقيل: يجوز أيضاً كونه حالاً من ضمير «نجعلهم»، وكذا يجوز كونه المفعولَ الثاني، وكون الكاف أو الجارِّ والمجرور حالاً من هذا الضمير، وما ذكر أولاً أظهرُ وأَولى.

وجُوِّز كونُ ضمير الجمع في «محياهم ومماتهم» للمؤمنين، ف «سواء» حال من الموصول الثاني، ولا يجوز أن يكون حالاً من الضمير في «كالذين» لفساد المعنى. وكونُ الضمير للفريقين، ف «سواء» حال من مجموع الموصول الثاني وضمير الأول، والمعنى على إنكار حسبان أن يستويَ الفريقان بعد الممات في الكرامة أو ترك المُؤاخذة كما استويا ظاهراً في الرزق والصحة في الحياة.

وجُوِّز أن يكون المعنى على إنكار حسبان جعل الحياتين مستويتين؛ لأن المؤمنين على الطاعة وأولئك على المعاصي، وكذلك الموتان لأنهم مُلقون بالبُشرى والرضوان، وأولئك بالسوء والخِذلان. وقيل به على تقدير كون الضمير للمجترحين أيضاً.

ولم يُجوِّز المدقِّق الإبدال من الكاف على تقدير اشتراك الضمير، إذ المثلُ هو المُشبَّه، و«سواء» جارٍ على المشبَّه والمشبَّه به.

وقرأ جمهور القرَّاء: «سواءٌ محياهم ومماتهم» برفع «سواء»(٢) وما بعده، على

(١) في الحجة ٦/ ١٧٥.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بالنصب والباقون بالرفع. التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧٢.

أنَّ «سواء» خبر مقدَّم وما بعده مبتدأ، لا العكس؛ لأن «سواء» نكرة، ولا مُسوِّغ للابتداء بها، والضمير للمجترحين، والجملة قيل: بدلٌ من المفعول الثاني لـ «نجعل» بَدَلَ كلٍّ من كلٍّ، أو بدلَ اشتمالٍ، أو بدلَ بعضٍ، وأيًّاما كان ففيه إبدالُ الجملة من المفرد، وقد أجازه أبو الفتح واختاره ابن مالك، وأورد عليه شواهد. قال أبو حيان[1]: لا يتعيَّن فيها البدل. وقال محمد بن عبد الله الإشبيلي المعروف بابن العلج في كتابه «البسيط في النحو»: لا يصحُّ أن تكون جملةٌ معمولةً للأول في موضع البدل، فإن كانت غيرَ معمولة فهل تكون جملة بدلاً من جملة؟ لا يبعد عندي جوازُ ذلك كالعطف والتأكيد اللفظي.

وظاهره أنه لا يجوز الإبدالُ هاهنا، وفي «البحر»: يظهر لي أنه لا يجوز إبدالُ هذه الجملة من ذلك المفعول، لأن الجعل بمعنى التصيير، ولا يجوز: صيَّرتُ زيداً أبوه قائم، ولا: صيَّرت زيداً غلامه منطلقٌ؛ لأن في ذلك انتقالاً من ذات إلى ذات، أو من وصف في الذات إلى وصف آخر فيها، وليس في تلك الجملة المقدَّرة مفعولاً ثانياً انتقالٌ مما ذكرنا. وفيه بحثٌ لا يخفى.

والزمخشري[2] قد نصَّ على جعل الجملة بدلاً من الكاف، وهو إمامٌ في العربية، لكن أفاد صاحب «الكشف» أنه أراد أنه بدلٌ من حيث المعنى لا أنه بدل من ذاك لفظاً، قال: لأنه مفردٌ دالٌّ على الذات باعتبار المعنى وهذا دالٌّ على المعنى، وإن كان الذات يلزم من طريق الضرورة إلا أن يقدَّر له موصوفٌ محذوف، بأن يقدّر: رجالاً سواء محياهم ومماتهم مثلاً، والمعنى على البدلية كما سمعت في قراءة النصب.

وجُوِّز كون الجملة مفعولاً ثانياً، و«كالذين» حال من ضمير «نجعلهم»، ولا يخفى عليك ما عليه وما له.

وإذا كان الضمير للمؤمنين فالجملة قيل: حال من الموصول الثاني لا من الضمير في المفعول الثاني للفساد. وتُعقِّب بأن فيه اكتفاء الاسمية الحالية بالضمير،

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٧، وما قبله وما بعده منه.
(٢) الكشاف ٣/ ٥١٢.

وهو غير فصيح على ما قيل. وقيل: استئناف يبيِّن المقتضي للإنكار على حُسبان التماثل، وهو أن المؤمنين سواء حالهم عند الله تعالى في الدارين بهجةً وكرامةً فكيف يُماثلهم المجترحون؟! وجُوِّز أن تكون بياناً لوجه الشَّبَه المُجمل.

وإذا كان الضمير للفريقين فالظاهر أن الجملةَ كلامٌ مستأنفٌ غيرُ داخل في حكم الإنكار والتساوي حينئذ بين حال المؤمنين بالنسبة إليهم خاصةً وحال المجترحين كذلك، وتكون الجملةُ تعليلاً للإنكار في المعنى دالًّا على عدم المماثلة لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن المؤمنين متساوو المَحْيا والممات في الرحمة، وأولئك متساوو المحيا والممات في النقمة، إذ المعنى: كما يعيشون يموتون، فلما افترق حال هؤلاء وحال هؤلاء حياة فكذلك موتاً، وأما الإبدال فقد علم حاله، فتأمَّل.

وقرأ الأعمش: «سواءً» بالنصب «محياهم ومماتهم» به أيضاً[(١)]، وخرّج الأول على ما سمعت، ونصب «محياهم ومماتهم» على الظرفية؛ لأنهما اسما زمان، أو مصدران أُقيما مُقام الزمان، والعامل إما «سواء» أو «نجعلهم».

هذا، والآيةُ وإن كانت في الكفار على ما نقل عن «البحر»[(٢)]، وهو ظاهرُ ما رُوي عن الكلبي من أن عتبة وشيبة والوليد بن عتبة قالوا لعليٍّ كرم الله تعالى وجهه وحمزة رضي الله عنه والمؤمنين: واللهِ ما أنتم على شيء، ولئن كان ما تقولون حقًّا لَحَالُنا أفضلُ من حالكم في الآخرة كما هو أفضل في الدنيا، فنزلت الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إلخ، وهي متضمِّنة للردِّ عليهم على جميع أوجهها كما يعرف بأدنى تدبُّر = يُستنبط منها تبايُنُ حالَي المؤمن العاصي والمؤمن الطائع؛ ولهذا كان كثيرٌ من العُبَّاد يبكون عند تلاوتها حتى إنها تسمى: مَبْكاة العابدين، لذلك، فقد أخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» والطبراني وجماعة عن أبي الضحى قال: قرأ تميمٌ الداريُّ سورة الجاثية، فلما أتى على

(١) القراءات الشاذة ص١٣٨.
(٢) البحر المحيط ٨/٤٨.

قوله تعالى: (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ) الآية، لم يزل يُكرِّرها ويبكي حتى أصبح، وهو عند المقام[١].

وأخرج ابن أبي شيبة عن نُسير[٢] مولى الربيع بن خُثيم أن الربيع كان يصلِّي، فمرَّ بهذه الآية: (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ) إلخ، فلم يَزَلْ يردِّدها حتى أصبح[٣].

وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه إذا قرأها: ليت شعري من أيِّ الفريقين أنت؟

وقال ابن عطية: إنَّ لفظها يعطي أنَّ اجتراحَ السيئات هو اجتراحُ الكفر؛ لمعادلته بالإيمان، ويحتمل أن تكون المعادلة بالاجتراح وعمل الصالحات ويكون الإيمان في الفريقين، ولهذا بكى الخائفون عند تلاوتها[٤].

ورأيت كثيراً من المغرورين المستغرقين ليلَهم ونهارَهم بالفسق والفجور يقولون بلسان القال والحال: نحن يوم القيامة أفضلُ حالاً من كثير من العابدين، وهذا منهم والعياذ بالله تعالى ضلالٌ بعيد وغرورٌ ما عليه مزيد.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: ساء حكمهم هذا، وهو الحكم بالتساوي، فـ «ما» مصدرية، والكلام إخبارٌ عن قبح حُكمهم المعهود. ويجوز أن يكون لإنشاء ذمِّهم على أنَّ «ساء» بمعنى بئس، فـ «ما» فيه نكرة موصوفة وقعت تمييزاً مفسِّراً لضمير الفاعل المُبهم، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ، أي: بئس شيئاً حكموا به ذلك.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ كأنه دليلٌ على إنكار حسبانهم السابق، أو دليل على تساوي مَحْيَا كلِّ فريق ومماتِه وبيانٌ لحكمته على تقدير كون قوله تعالى: (سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ) استئنافاً، وذلك من حيث إنَّ خَلْق العالم بالحقِّ المقتضي

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٥، والزهد لأحمد ص٢٢٧، والمعجم الكبير للطبراني (١٢٥١).
(٢) في الأصل و(م): بشير، وهو خطأ، وهو نُسير بن ذعلوق الثوري، مولاهم، أبو طعمة الكوفي. تهذيب التهذيب ٤/ ٢١٦.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٥، ومصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٤٧٧ و١٣/ ٣٩٦.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٨٥، وفيه قصة الفضيل بن عياض السابقة.

للعدل يستدعي انتصاف المظلوم من الظالم، والتفاوتَ بين المسيء والمحسن، وإذا لم يكن في المحيا كان بعد الممات حتماً.

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عطف على «بالحق» لأنه في معنى العلَّة، سواء كانت الباء للسببية الغائية أو الملابسة، أما على الأول فظاهر، وأما على الثاني فلأن المعنى: خَلَقَها ملتبسةً ومقرونةً بالحِكمة والصواب دون العَبَث والباطل، وحاصله: خلقها لأجل ذلك. أو عطف على علَّة محذوفة مثل: ليدلَّ سبحانه بها على قُدرته، أو: ليعدل. و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: لتُجزى كل نفس بالذي كسبته أو بكسبها.

﴿وَهُمْ﴾ أي: النفوس المدلول عليها بكلِّ نفس ﴿لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ بنقص ثوابٍ وتضعيفِ عذاب، والجملة في موضع الحال، وتسميةُ ذلك ظلماً مع أنه ليس كذلك؛ لأنه منه سبحانه تصرفٌ في مُلكه، والظلم تصرُّفٌ في مُلك الغير بغير إذنه لأنه لو فعله غيره عز وجل كان ظلماً، فالكلامُ على الاستعارة التمثيلية، أو أنه لمّا كان مخالفاً لوعده سبحانه الحقّ سماه تعالى ظُلماً.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تعجيبٌ مِن حالِ مَن تركَ متابعةَ الهُدى إلى مطاوعة الهوى، فكأنه يعبدُه، فالكلامُ على التشبيه البليغ أو الاستعارة، والفاء للعطف على مقدَّر دخلت عليه الهمزة، أي: أنظرت مَنْ هذه حاله فرأيته، فإنَّ ذلك مما يقضي منه العجب.

وأبو حيان[1] جعل أرأيت، بمعنى: أخبرني، وقال: المفعول الأول «مَن اتَّخذ» والثاني محذوف يقدَّر بعد الصلات، أي: أيهتدي، بدليل «فمن يهديه».

والآية نزلت على ما رُوي عن مقاتل في الحارث بن قيس السهمي، كان لا يهوى شيئاً إلا ركبه[2]. وحكمها عامٌّ وفيها مِنْ ذمِّ اتِّباع هوى النفس ما فيها.

وعن ابن عباس: ما ذكَر اللهُ تعالى هوًى إلا ذمَّه[3].

---

(١) في البحر المحيط ٨/٤٨.
(٢) تفسير القرطبي ١٩/١٥٨.
(٣) المحرر الوجيز ٥/٨٦.

وقال وهب: إذا شككتَ في خير أمرين فانظُرْ أبْعَدَهما من هواك فَأْتِهِ.

وقال سهل التُّسْتَري: هواك داؤك، فإن خالفته فدواؤك.

وفي الحديث: «العاجزُ من أتبع نَفْسَه هواها وتمنَّى على الله تعالى»[١].

وقال أبو عمران موسى بن عمران الإشبيلي الزاهد:

فخالف هواها واعصِها إنَّ من يُطِعْ هَوَى نَفْسِه ينزعْ به شرَّ مَنزعِ
ومَن يُطع النفسَ اللجوجة تُرْدِه وتَرْمِ به في مصرعٍ أيِّ مصرعِ[٢]

وقد ذُمَّ ذلك جاهلية أيضاً، ومنه قول عنترة:

إني امرؤ سمحُ الخليقة ماجدٌ لا أُتبع النفسَ اللجوجَ هواها[٣]

ولعلَّ الأمر غنيٌّ عن تكثير النقل.

وقرأ الأعرج وأبو جعفر: «إلهةً» بتاء التأنيث بدل هاء الضمير، وعن الأعرج أنه قرأ: «آلهة» بصيغة الجمع. قال ابن خالويه[٤]: كان أحدُهم يستحسن حَجَراً فيعبده، فإذا رأى أحسنَ منه رفضه مائلاً إليه. فالظاهرُ أن «آلهةً» بمعناها من غير تجوُّز أو تشبيه، والهوى بمعنى المهويّ، مثله في قوله:

هوايَ مع الركب اليمانِين مُصْعِدُ[٥]

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ أي: خلقه ضالًّا، أو خلق فيه الضلال، أو خذله وصرفه عن اللطف على ما قيل. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال من الفاعل، أي: أضلَّه الله تعالى عالماً سبحانه بأنه أهلٌ لذلك لفساد جوهر روحه. ويجوز أن يكون حالاً من المفعول،

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٢٣) من حديث شداد بن أوس ﷺ، وفي إسناده: أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٩.

(٣) ديوان عنترة ص١٨٦ (بتحقيق عبد المنعم شلبي).

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٨، وقراءة الأعرج وأبي جعفر فيه وفي البحر المحيط ٨/ ٤٨.

(٥) قائله جعفر بن علبة الحارثي، وعجزه: جَنيبٌ وجثماني بمكة مُوثَق. خزانة الأدب ١٠/ ٣٠٧.

أي: أضلَّه عالماً بطريق الهدى فهو كقوله تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [الجاثية: ١٧].

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ بحيث لا يتأثَّر بالمواعظ ولا يتفكَّر في الآيات.

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ مانعةً عن الاستبصار والاعتبار، والكلام على التمثيل.

وقرأ عبد الله والأعمش: «غَشاوة» بفتح الغين[1]، وهي لغةُ ربيعة، والحسن وعكرمة وعبد الله أيضاً بضمِّها، وهي لغةُ عُكْلية[2]، وأبو حنيفة وحمزة والكسائي وطلحة ومسعود بن صالح والأعمش أيضاً: «غَشْوة» بفتح الغين وسكون الشين[3]، وابن مُصَرِّف والأعمش أيضاً كذلك إلا أنهما كسرا الغين[4].

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ﴾ أي: من بعد إضلاله تعالى إيَّاه. وقيل: المعنى: فمن يهديه غير الله سبحانه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: ألا تُلاحظون فلا تذكرون، وقرأ الجحدري: «تذكرون» بالتخفيف، والاعمش: «تتذكَّرون» بتاءين على الأصل[5].

﴿وَقَالُواْ﴾ بيان لإحكام إضلالهم، والخَتْم على سمعهم وقلوبهم، وجَعْلِ غشاوةٍ على أبصارهم، فالضمير لـ «مَنْ» باعتبار معناه أو للكفرة: ﴿مَا هِيَ﴾ أي: ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ التي نحن فيها، ويجوز أن يكون الضميرُ للحال والحياة الدنيا من جملة الأحوال، فيكون المُستثنى من جنس المستثنى منه أيضاً لاستثناء حالِ الحياة الدنيا من أعمِّ الأحوال، ولا حاجةَ إلى تقدير حال مضافاً بعد أداة الاستثناء، أي: ما الحال إلا حال الحياة الدنيا.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٨.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٩، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٨.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٩، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٩٩، والنشر ٢/ ٣٧٢، وقرأ بها خلف.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٩.
(٥) المصدر السابق.

﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ حكم على النوع بجملته من غير اعتبارِ تقديم وتأخير، إلا أن تأخيرَ «نحيا» في النَّظم الجليل للفاصلة، أي: تموت طائفةٌ وتحيا طائفة، ولا حشر أصلاً.

وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: نحيا ونموت. وليس بذاك.

وقيل: أرادوا بالموت عدمَ الحياة السابق على نَفْخ الروح فيهم، أي: نكون نطفاً وما قبلها وما بعدها ونحيا بعد ذلك.

وقيل: أرادوا بالحياة بقاء النسل والذرية مجازاً، كأنهم قالوا: نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا وذرارينا.

وقيل: أرادوا: يموت بعضنا ويحيا بعض، على أن التجوُّز في الإسناد.

وجُوِّز أن يُريدوا بالحياة على سبيل المجاز إعادةَ الروح لبَدَنٍ آخَر بطريق التناسخ، وهو اعتقادُ كثيرٍ من عبدة الأصنام، ولا يخفى بُعْدُ ذلك.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «ونُحيَا» بضمِّ النون[1].

﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ أي: طولُ الزمان، فالدهر أخصُّ من الزمان، وهو الذي ارتضاه السعد، ولهم في ذلك كلامٌ طويل. وقال الراغب: الدهر في الأصل: اسمٌ لمدة العالم من مَبْدأ وجودِهِ إلى انقضائه، ثم يُعبَّر به عن كلِّ مُدَّة كثيرة، وهو خلافُ الزمان، فإنه يقع على المدَّة القليلة والكثيرة، ودهرُ فلانٍ: مُدَّةُ حياته، ويقال: دَهَرَ فلاناً نائبةٌ دهراً، أي: نزلت به؛ حكاه الخليل، فالدهر هاهنا مصدر[2].

وذكر بعضُ الأجِلَّة أن الدهرَ بالمعنى السابق منقولٌ من المصدر، وأنه يقال: دَهَره دهراً، أي: غلبه، وإسنادهم الإهلاك إلى الدهر إنكارٌ منهم لملك الموت وقَبْضِهِ الأرواح بأمر الله عز وجل، وكانوا يُسندون الحوادث مطلقاً إليه لجهلهم أنها مُقدَّرة من عند الله تعالى، وأشعارُهم لذلك مملوءةٌ من شكوى الدهر، وهؤلاء معترفون بوجود الله تعالى، فهم غير الدهرية، فإنهم مع إسنادهم الحوادثَ إلى الدهر لا يقولون بوجوده، سبحانه وتعالى عمَّا يقولون علوًّا كبيراً. والكلُّ يقول

(١) ذكرها القرطبي في تفسيره ١٩/ ١٦٤ دون نسبة، وهي في البحر المحيط ٨/ ٤٩.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن (دهر).

باستقلال الدهر بالتأثير، ولا يَبْعُدُ أن يكون الزمان عندهم مقدارَ حركة الفَلَك كما ذهب إليه معظمُ الفلاسفة.

وقد جاء النهي عن سبِّ الدهر؛ أخرج مسلم[(١)]: «لا يسبُّ أحدُكم الدهرَ فإنَّ اللهَ هو الدهرُ»، وأبو داود والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم: «قال الله عز وجل: يُؤْذِيني ابنُ آدمَ يقول: يا خيبةَ الدهر، فلا يَقُلْ أحدُكم: يا خيبةَ الدهر، فإنِّي أنا الدهرُ أُقلِّب ليلَه ونهارَه»[(٢)]، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم أيضاً، يقول الله عز وجل: «استقرَضْتُ عبدي فلم يُقْرِضْني، وشَتَمني عبدي وهو لا يدري يقول: وَادَهْرَاه، وأنا الدهرُ»[(٣)]، والبيهقي: «لا تسبُّوا الدهرَ، قال الله عز وجل: أنا الأيامُ والليالي أُجدِّدها وأبليها، وآتي بمُلُوكٍ بعدَ مُلُوك»[(٤)].

ومعنى ذلك أن الله تعالى هو الآتي بالحوادث، فإذا سببتم الدهر على أنه فاعل وقع السبُّ على الله عز وجل.

وعدَّ بعضُهم سبَّه كبيرةً، لأنه يؤدِّي إلى سبِّه تعالى، وهو كفر، وما أدَّى إليه فأدنى مراتبه أن يكون كفراً[(٥)].

وكلام الشافعية صريحٌ بأنَّ ذلك مكروه لا حرام فضلاً عن كونه كبيرةً، والذي يتَّجه في ذلك تفصيل، وهو أن مَنْ سبَّه فإنْ أراد به الزمن فلا كلام في الكراهة، أو اللهَ عز وجل فلا كلامَ في الكُفر، ومثله إذا أراد المؤثِّرَ الحقيقيَّ فإنه ليس إلا الله

---

(١) برقم (٢٢٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أبو داود (٥٢٧٤)، والحاكم ٢/ ٤٥٣، وهو عند مسلم (٢٢٤٦): (٣)، ولقول الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ينظر لزاماً المفهم ٥/ ٥٤٧، وتحفة الأشراف ١٠/ ٥٥ حيث وقعت الرواية عندهما موقوفة على أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الحاكم ١/ ٤١٨، وأخرجه أحمد (١٠٥٧٨)، وأبو يعلى (٦٤٦٦)، وهو من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) شعب الإيمان (٥٢٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو عند أحمد (١٠٤٣٨)، وصحَّحه ابن حجر في الفتح ١٠/ ٥٦٥.

(٥) جاء في هامش (م): كذا بالأصل، ولعلَّ الأولى: أن يكون كبيرةً. اهـ. وهو الصواب، بدليل قوله بعده: . . . فضلاً عن كونه كبيرة.

سبحانه؛ وإنْ أطلق فهذا محلُّ التردد لاحتمال الكفر وغيره، وظاهر كلامهم هنا أيضاً الكراهة؛ لأن المتبادر منه الزمن وإطلاقُه على اللهِ تعالى كما قال بعضُ الأجِلَّة إنما هو بطريق التجوّز.

ومن الناس من قال: إنَّ سبَّه كبيرةٌ إن اعتقد أنَّ له تأثيراً فيما نزل به كما كان يعتقد جَهَلةُ العرب. وفيه نظر، لأنَّ اعتقادَ ذلك كفرٌ، وليس الكلام فيه.

وأنكر بعضُهم كونَ ما في حديث أبي داود والحاكم: «فإني أنا الدَّهرُ» بضمِّ الراء، وقال: لو كان كذلك كان الدهر من أسمائه تعالى، وكان يرويه: «فإني أنا الدَّهرَ» بفتح الراء ظرفاً لـ «أقلب»، أي: فإني أنا أقلِّب الليل والنهار الدهرَ، أي: على طول الزمان ومَمَرِّه، وفيه أن رواية مسلم: «فإن اللهَ هو الدهر» تبطل ما زعمه، ومن ثَمَّ كان الجمهور على ضمِّ الراء. ولا يلزم عليه أن يكون من أسمائه تعالى؛ لِمَا سبق أن ذلك على التجوُّز، وحكى الراغب[1] عن بعضهم أن الدهر الثاني في حديث مسلم غير الأول، وأنه مصدرٌ بمعنى الفاعل، والمعنى أن الله تعالى هو الداهر، أي: المُصرِّف المدبِّر المقيِّض لما يحدث. وفيه بُعد.

وقرأ عبد الله: «إلا دهرٌ»[2]، وتأويله: إلا دَهرٌ يمرُّ.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي: بما ذكر من قَصْرِ الحياة على ما في الدنيا ونسبة الإهلاك إلى الدهر ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مستندٍ إلى عقل أو نقل ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ ما هم إلا قومٌ قُصارى أمرهم الظنّ والتقليد من غير أن يكون لهم ما يصحُّ أن يُتَمسَّك به في الجملة، هذا معتقدهم الفاسد في أنفسهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ الناطقةُ بالحقِّ الذي من جملته البعث ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة على ما نطقتْ به مما يُخالف مُعتقدَهم، أو مُبيِّنات له ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ بالنصب على أنه خبر «كان» واسمها قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: في أنَّا نُبعَثُ بعد الموت، أي: ما كان متمسكاً لهم شيء من الأشياء إلا هذا القول الباطلُ الذي يستحيل أن يكون حُجَّة، وتسميته حُجَّة لسوقهم

---

(١) في المفردات (دهر).

(٢) تفسير الطبري ٩٦/٢١.

إياه مساق الحُجَّة على سبيل التهكُّم بهم، أو أنه من قَبيل:

تــحــيــةُ بــيــنــهــم ضَــرْبٌ وجــيــع[(١)]

أي: ما كان حُجَّتهم إلا ما ليس بحجة، والمراد نفي أن يكون لهم حُجَّة، فإنه لا يلزم من عدم حصول الشيء حالاً ـ كإعادة آبائهم التي طلبوها في الدنيا ـ امتناعُه بعدُ لتمتنع الإعادة إذا قامت القيامة.

والخطاب في «ائتوا» و«كنتم» للرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين؛ إذ هم قائلون بمقالته ﷺ من البعث، طالبون من الكفرة الإقرارَ به. وجُوِّز أن يكون له عليه الصلاة والسلام وللأنبياء عليهم السلام الجائين بالبعث، وغلّب الخطاب على الغيبة.

وقال ابن عطية[(٢)]: «ائتوا» و«كنتم» من حيث المخاطبةُ له ﷺ، والمراد: هو وإلهه والمَلَكُ الذي يَذكُر عليه الصلاة والسلام نزوله عليه بذلك، وهو جبريلُ عليه السلام. وهو كما ترى.

وقرأ الحسن وعمرو بن عُبيد وابن عامر ـ فيما روى عنه عبد الحميد ـ وعاصم فيما روى هارون وحسين عن أبي بكر عنه: «حُجَّتُهم» بالرفع[(٣)] على أنه اسم «كان» وما بعدُ خبر، أي: ما كان حُجَّتُهم شيئاً من الأشياء إلا هذا القول الباطل.

وجواب «إذا»: ما كان.. إلخ، ولم تقترن بالفاء وإن كانت لازمة في المنفي بـ «ما» إذا وقعت جوابَ الشرط لأنها غيرُ جازمة ولا أصلية في الشرطية، وهو سرُّ قول أبي حيان[(٤)]: إنَّ «إذا» خالفت أدواتِ الشرط بأنَّ جوابها إذا كان منفيًّا بـ «ما» لم تدخل الفاء، بخلاف أدوات الشرط فلا بدَّ معها من الفاء نحو: إن تَزُرْنا فما جفوتنا، فلا حاجة إلى تقدير جواب لها كـ : عمدوا إلى الحجج الباطلة، خلافاً لابن هشام[(٥)]، واستدلَّ بوقوع ما ذكر جواباً على أن العمل في «إذا» ليس للجواب

(١) سلف ٥/ ٦٤ و٧/ ٢٨٠، وغيرها.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٨٨.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٩، والمشهور عن ابن عامر وعاصم النصب كقراءة الجمهور.

(٤) في البحر المحيط ٨/ ٤٩.

(٥) في مغني اللبيب ص١٣٣، والكلام الآنف الذكر من ردِّه لكلام أبي حيان.

لصدارة «ما» المانعة منه، ولا قائل بالفرق، ولعلَّ من قال بالعمل يقول: يتوسَّع في الظرف ما لم يتوسَّع في غيره. ثم إن المعنى على الاستقبال لمكان «إذا» أي: ما تكون حُجَّتهم إلا أن يقولوا ذلك.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ ابتداء ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم على ما دلَّ عليه الحُجج، لا الدهر كما تزعُمون ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: فيه، وجُوِّز كونُ الفعل مُضَمَّناً معنى مبعوثين أو منتهين ونحوه، ومعنى «في» أظهر، أي: يجمعكم في يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في جمعكم، فإنَّ مَنْ قدر على البَدْء قدر على الإعادة، والحِكمة اقتضت الجمعَ للجزاء لا محالة في ذلك اليوم، والوعد الصدق بالآيات دل على وقوعها، وحاصلُه أن البعث أمرٌ ممكنٌ أخبر به الصادق، وتقتضيه الحِكمة، وكلُّ ما هو كذلك لا محالةَ واقعٌ، والإتيانُ بالآباء ـ حيث كان مُنافياً للحكمة التشريعية ـ امتنع إيقاعُه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ استدراكٌ من قوله تعالى: «لا ريب فيه» وهو من تمام الكلام المأمور به، أو كلامٌ مسوقٌ من جهته تعالى تحقيقاً للحقِّ وتنبيهاً على أن ارتيابهم لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكُّر لا لأن فيه شائبة ريبٍ ما.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بيانٌ للاختصاص المطلق والتصرف الكُلِّي فيهما وفيما بينهما بالله عز وجل إثر بيان تصرُّفه تعالى بالإحياء والإماتة والبعث والجمع للمجازاة، فهو تعميمٌ للقدرة بعد تخصيص.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ قال الزمخشري[(١)]: العامل في «يوم تقوم»: «يخسر»، و«يومئذ» بدل من «يوم تقوم»، وحكاه ابنُ عطية[(٢)] عن جماعة. وتقديمُ الظرف على الفعل للحصر لأنَّ كلَّ خسران عند الخسران في ذلك اليوم كَلَا خُسرانٍ، وفيه أيضاً رعايةُ الفواصل على ما قيل، وتُعقِّب حديث الإبدال بأن التنوين في «يومئذ» عوضٌ عن الجملة المضاف إليها، والظاهرُ أنها

(١) الكشاف ٣/ ٥١٣.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٨٨.

تقدَّر بقرينة ما قبل «تقوم الساعة» فيقال: ويومَ تقومُ الساعة يومَ إذ تقوم الساعة يخسر المبطلون، فيكون تأكيداً لا بدلاً إذ لا وجهَ له. ولذا قيل: إنه بالتأكيد أشبهُ.

وقول أبي حيان(١): إن كان بدلاً توكيديًّا ـ وهو قليلٌ ـ جاز، وإلا فلا = لا يُسمِنُ ولا يُغني.

وتكلَّف بعضُهم فزعم أن اليوم الثاني بمعنى الوقت الذي هو جُزء من يوم قيام الساعة، فهو بدلُ بعض معه عائدٌ مقدَّر، ولما كان فيه ظهور خُسرانهم كان هو المقصودَ بالنسبة.

وقالت فرقة: العامل في «يوم تقوم» ما يدلُّ عليه الملك، قالوا: وذلك أن يومَ القيامة أمرٌ ثالثٌ ليس بالسماء ولا بالأرض لتبدُّلهما، فكأنه قيل: ولله ملك السماوات والأرض والملك يومَ تقوم الساعة، و«يومئذ» منصوب بـ «يخسر»، والجملة استئنافٌ. وإن كان لها تعلُّق بما قبلها من جهة تنوين العوض.

وقيل: يجوز أن يكون عطفاً على ظرف معمول لـ «ملك» المذكور، كأنه قيل: لله ملك السماوات والأرض اليومَ ويومَ تقوم الساعة. وهو كما ترى.

و«المبطلون»: الداخلون في الباطل، ولعل المرادَ به أعظم أنواعه، وهو الكفر.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المجموعة ﴿جَاثِيَةً﴾ باركةً على الرُّكَب مُستوفِزة، وهي هيئةُ المُذنِب الخائف المنتظر لما يكره، وعن ابن عباس: «جاثية»: مجتمعة، وعن قتادة: جماعات، من الجثوة ـ مثلثة الجيم ـ وهي الجماعة تجتمع على جُثى، أي: تراب مجتمع، وعن مُؤرِّج السدوسي: «جاثية»: خاضعة، بلغة قريش(٢).

والخطاب في «ترى» لمن يصحُّ منه الرؤية أو لسيِّد المُخاطَبين عليه الصلاة والسلام، وهي بصريَّة، و«جاثية» حال، وجُوِّز أن تكون صفةً، ولو كانت علمية كانت مفعولاً ثانياً.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٠.
(٢) تفسير القرطبي ١٩/ ١٦٩.

وقرئ: «جاذية» بالذال[١]، والجُذُوّ أشدُّ استيفازاً من الجُثُوّ؛ لأن الجاذي هو الذي يجلسُ على أطراف أصابعه. وجُوِّز أن يكون الجاذي بمعنى الجاثي، أُبدلت ثاؤه ذالاً، فإن الثاء والذال متقارضان كما قيل: شحَّاث وشحَّاذ.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ إلى صحيفة أعمالها التي كتبتها الحَفَظة لِتحاسب، وأُفرد على إرادة الجنس، وإلا فلكلٍّ واحد من كلِّ أمة صحيفةٌ فيها أعماله.

وقيل: المرادُ كتاب نبيِّها؛ تُدعى إليه لينظر هل عملت[٢] به أَوْ لا. وحُكي ذلك عن يحيى بن سلام إلا أنه حمل «كلّ أمة» على كلِّ أُمة كافرة، والظاهر العموم.

وقيل: المراد بذلك اللوحُ المحفوظ، أي: تدعى إلى ما سبق لها فيه.

وقرأ يعقوب «كلَّ» بالنصب[٣]، وخُرِّج على أنه بدل من «كلّ» الأول، وجملة «تُدعى» صفة، وإبدال الأمة المدعوة إلى كتابها من الأمة الجاثية حسن، وجاء ذلك من الوصف، ويقال مثل ذلك فيما إذا كان الجملة حالاً، وإذا كانت الرؤية علمية وجملة «تدعى» مفعولاً ثانياً فالظاهر أنه تأكيدٌ، وجعله تأكيداً مع كون الجملة صفةً فيه تخلُّل التأكيد بين الوصفين، وهو كما في «الكشف» غير مستحسن.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ مقولُ قولٍ مقدَّرٍ هو حالٌ أو خبرٌ بعد خبر. وفي الكلام مضافٌ مقدَّر، أي: جزاء ما كنتم.. إلخ، أو هو من المَجاز.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ إلى آخره من تمام ما يقال حينئذ، والإشارة إلى الكتاب التي تدعى إليه الأمة المَقولُ لها ذلك، وهو إذا كان صحيفة الأعمال فإضافته إلى ضميره جل شأنه لأدنى مُلابسة على التجوُّز في النسبة الإضافية، فإنه تعالى الذي أمر الكَتَبة أن يكتبوا فيه أعمالهم، وإن كان الكتابَ المُنزلَ على نبيِّ تلك الأمة، أو اللوحَ المحفوظَ، فأمر الإضافة ظاهر، وضمير العظمة على سائر الأوجه لتفخيم شأن الكتاب. وجُوِّز أن يكون الضمير للكَتَبة والإضافة فيه حقيقيةٌ، قيل: ويأباه «نستنسخ» إلا أن يُجعل بمعنى: ننسخ ونكتب، وستعلم إن شاء الله

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٥٠.

(٢) في الأصل: علمت.

(٣) النشر ٢/ ٣٧٢.

تعالى ما فيه. والأظهر عندي حملُ الكتاب في الموضعين على صحيفة الأعمال، واسم الإشارة مبتدأ وما بعده خبر.

وقوله سبحانه: ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ أي: يشهد عليكم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ من غير زيادة ولا نقص، خبرٌ آخرُ أو حال أو مستأنف، و«بالحق» حالٌ من فاعل «ينطق»، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ إلى آخره تعليلٌ لِنُطقه عليهم بأعمالهم من غير إخلال بشيء منها، أي: إنا كنا فيما قبل نستنسخ الملائكةَ، أي: نجعلها تَنسخ وتكتب ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ في الدنيا من الأعمال حسنةً كانت أو سيئةً.

وحقيقةُ النسخ كتابةٌ من أصل ينظر فيه، فكأن أفعالَ العباد هي الأصل على ما في «البحر»[(١)]، وأخرج ابن جرير[(٢)] عن ابن عباس قال: إن الله تعالى خَلَق النونَ وهي الدواة، وخَلَق القلم، فقال: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة من عملٍ معمول، برٌّ أو فجور، ورزق مقسوم حلالٍ أو حرام، ثم أَلْزَمَ كلَّ شيء من ذلك بيانه[(٣)]: دخولَه في الدنيا متى، ومُقامه فيها كَمْ، وخروجه منها كيف؟ ثم جعل على العِباد حَفَظةً، وعلى الكتاب خُزَّاناً، فالحفظة يستنسخون كلَّ يوم من الخُزَّان عملَ ذلك اليوم، فإذا فَنِيَ الرزق وانقطع الأمر[(٤)]، وانقضى الأجل، أَتَت الحَفَظةُ الخَزَنةَ يطلبون عملَ ذلك اليوم، فتقول الخَزَنة: ما نجدُ لصاحبكم عندنا شيئاً. فترجع فيجدونه قد مات. ثم قال ابن عباس: ألستم قوماً عرباً تسمعون الحَفَظة يقولون: «إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون»، وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل؟!

وفي رواية ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه رضي الله عنه أنه سئل عن الآية فذكر نحوَ ما سمعتَ، ثم قال: هل يُستنسخ الشيء إلا من كتاب[(٥)].

وكون الاستنساخ من اللوح قد رواه جماعةٌ عنه، وما ذكرناه يُصحِّح أن يكون

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥١.
(٢) تفسير الطبري ٢١/ ١٠٤، وهو في الدر المنثور ٦/ ٣٦.
(٣) في تفسير الطبري: شأنه.
(٤) في تفسير الطبري: الأثر.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٣٦.

هذا القول من الملائكة بدون تأويل «نستنسخ» بننسخ كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ إلى آخره تفصيلٌ للمجمل المفهوم من قوله تعالى: «ينطق عليكم بالحق» أو: يجزون من الوعد والوعيد، والمراد بالرحمة الجنة مجازاً والظرفية على ظاهرها، وقيل: المراد بالرحمة ما يشملُ الجنة وغيرها، والأولُ أظهر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من الإدخال في رحمته تعالى ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ۝٣٠﴾ الظاهرُ كونه فوزاً لا فوزَ وراءه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فيقال لهم بطريق التقريع والتوبيخ: ألم تكن تأتيكم رُسلي فلم تكن آياتي تُتلى عليكم، فجوابُ «أمّا» القول المُقدَّر، وحُذف اكتفاءً بالمقصود، وهو المقولُ، وحذفُه كثيرٌ مقيس حتى قيل: هو البحر حدِّث عنه، وحذف المعطوف عليه لقرينة الفاء العاطفة وأن تلاوة الآيات تستلزم إتيان الرُّسل معنى، وهذا على ما ذهب إليه الزمخشري[1].

والجمهور على أن الهمزة مقدَّمة من تأخير لصدارتها، والفاءُ على نية التقدير، والتقدير: فيقال لهم: ألم تكن.. إلخ، فليس هناك سوى حذف القول، وفي «الكشف»: لو حمل على أن المحذوف: فيوبخون، لدلالة ما بعدَه عليه، وفائدة هذا الأسلوب مع أن الأصل: فيدخلهم في عذابه، الدلالةُ على أن المؤمنين يدخلون الجنة والكافرون بعدُ في الموقف معذَّبون بالتوبيخ = لكان وجهاً.

﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٣١﴾ قوماً عادتُهم الإجرام.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما[2] وعده سبحانه من الأمور الآتية، أو وعده تعالى بذلك ﴿حَقٌّ﴾ أي: كائن هو أو متعلّقه لا محالة، ففي الكلام تجوُّز إما في الطرف أو في النسبة.

وقرأ الأعرج وعمرو بن فائد: «وإذا قيل أنَّ» بفتح الهمزة[3] على لغة سُليم.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١٣.

(٢) في (م): وما.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٨.

﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ برفع «الساعةُ» في قراءة الجمهور على العطف على محلِّ «إنَّ» واسمِها على ما ذهب إليه أبو عليٍّ[١] وتَبِعه الزمخشري[٢]، ومَن زعم أنَّ لاسم «إنَّ» موضعاً جوَّز العطف عليه هنا، وزعم أبو حيان[٣] أن الصحيح أنه لا يجوز كلا الوجهين، وعليه فجملة «الساعةُ لا ريب فيها» عطف على الجملة السابقة.

وقرأ حمزة: «والساعةَ» بالنصب[٤] عطفاً على اسم «إنَّ» ورُوي ذلك عن الأعمش وأبي عمرو وأبي حيوة وعيسى والعبسي والمفضَّل[٥]. وذكر أمر الساعة وأنها لا ريب في وقوعها مع أنها من جملة ما وعد اللهُ تعالى اعتناء بأمر البعث المقصود بالمقام.

﴿قُلْتُم﴾ لغاية عُتوِّكم: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: أيُّ شيء هي؟ استغراباً لها جدًّا كما يُؤذِن به جمع «ما ندري» مع الاستفهام.

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ استشكل ذلك لِمَا أنه استثناءٌ مفرَّغ، وقد قالوا: لا يجوز تفريغُ العامل إلى المفعول المطلق المؤكّد، فلا يقال: ما ضربت إلا ضرباً؛ لأنه بمنزلة: ما ضربتُ إلا ضربتُ. وقال الرضي: إن الاستثناء المفرغ يجب أن يُستثنى من متعدِّدٍ مقدَّرٍ معربٍ بإعراب المستثنى مستغرِق لذلك الجنس حتى يدخل فيه المستثنى بيقين ثم يخرج بالاستثناء، وليس مصدر نظن محتمِلاً مع الظنِّ غيرَه حتى يخرج الظنُّ منه، وكذا يقال في: ما ضربت إلا ضرباً، ونحوه، وهذا مرادُ من قال: إنه من قَبيل استثناء الشيء من نفسه.

واختلفوا في حِلِّه فقيل: إن معنى ما نظنُّ: ما نفعل الظنَّ، كما في نحو: قِيم وقُعِدَ، وحينئذ يصحُّ الاستثناء ويتغاير موردُ النفي والإيجاب من حيث التقديرُ والتجوُّز في الاستثناء من العامِّ المقدَّر، وجعل «نظن» في معنى نفعل الفعل، لا نفعل الظنَّ،

(١) في الحجة للقراء السبعة ٦/ ١٨٠.
(٢) في الكشاف ٣/ ٥١٣.
(٣) في البحر المحيط ٨/ ٥١.
(٤) التيسير ص١٩٩، والنشر ٢/ ٣٧٢.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٥١، وهي غير المشهورة عن أبي عمرو.

كأنه قيل: ما نفعل فعلاً إلا الظنّ، وكذا يقال في أمثاله ومنها قول الأعشى:

أحلَّ به الشيب أثقالَه وما اعترَّه الشيب إلا اعترارا[1]

وارتضاه صاحبُ «الكشف».

وقيل: ما نظن بتأويل: ما نعتقد، ويكون «ظنًّا» مفعولاً به، أي: ما نعتقد شيئاً إلا ظنًّا، وارتضاه أبو حيان[2]. وتُعقِّب بأنَّ ظاهر حالهم أنهم متردِّدون لا مُعتقدون.

وأُجيب بأنَّ الاعتقاد المنفيَّ لا يُنافي ظاهر حالهم، بل يُقرِّرها على أتمِّ وجه.

وقيل: المستثنى ظنّ أمر الساعة، والمستثنى منه مطلقُ الظنِّ، كأنه قيل: لا ظنَّ ولا تردُّد لنا إلا ظن أمر الساعة والتردُّد فيه، فالكلام لنفي ظَنِّهم فيما سوى ذلك مبالغة.

وقال الرضي: إن: ما ضربتُ إلا ضرباً، يحتمل التعدُّد من حيث توهُّم المخاطب، إذ ربما تقول: ضربتُ، وقد فعلتَ غير الضرب مما يجري مجراه من مُقدِّماته كالتهديد، فتدفع ذلك وتقول: ضربت ضرباً، فهو نظيرُ: جاء زيدٌ زيدٌ، فلما كان «ضربت» محتملاً للضرب وغيره من حيث التوهُّم صار كالمتعدِّد الشامل للضرب وغيره، وحاصلُه أن الضربَ لما احتملَ قبل التأكيد والاستثناء فعلاً آخر حُمل على العموم بقرينة الاستثناء، فيكون المعنى: ما فعلتُ شيئاً إلا ضرباً، وهكذا «ما نظنُّ إلا ظنًّا» وهذا كالمُتَّحد مع ما ذكرناه أولاً.

ورُدَّ بأن الاستثناء يقتضي الشمولَ المحقَّق، ولا يكفي فيه الاحتمال المحقَّق فضلاً عن المتوهَّم.

وتُعقِّب بأنه ليس بشيء لأنه إذا تجرَّد الفعل لمعنى عامٍّ صار الشمول محقَّقاً، على أن عدم كفاية الشمول الفرضي غير مسلَّم كما يعرفه من يتتبَّع موارده.

وذهب ابن يعيش[3] وأبو البقاء[4] إلى أنه على القلب والتقديم والتأخير،

---

(١) ديوان الأعشى ص٩٥، وخزانة الأدب ٣/ ٣٧٤.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٥١.

(٣) شرح المفصل ٧/ ١٠٧-١٠٨.

(٤) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣١٧ (بهامش الفتوحات الإلهية).

والأصل: إن نحن إلا نظنُّ ظنًّا. وحُكي ذلك عن المبرِّد، وقد حَمَل عليه ما حكاه أبو عمرو بن العلاء وسيبويه من قول العرب: ليس الطِّيبُ إلا المِسْكُ، بالرفع[١]، فقال: الأصلُ: ليس إلا الطِّيبُ المِسْكُ، ليكون اسمُ «ليس» ضميرَ الشأن، وما بعد «إلا» مبتدأ وخبراً في موضع الخبر لها. وردَّه الرضي، وقال: إنه تكلُّف؛ لِمَا فيه من التعقيد المُخِلِّ بالفصاحة.

والمثال المَحكي واردٌ على لغة بني تميم فإنهم عاملوا «ليس» معاملةَ «ما» فأهملوها لانتقاض النفي بـ «إلا».

وقيل: «ظنًّا» مفعول مطلق لفعل محذوف، والمستثنى محذوفٌ، والتقدير: إن نظنُّ إلا أنكم تظنون ظنًّا. وحُكي عن المبرِّد أيضاً، وفيه حذف «إن» واسمها وخبرها وإبقاء المصدر، وذلك لا يجوز، وفيه أيضاً من التعقيد المُخِلِّ بالفصاحة ما فيه، ولا أظنُّ صحةَ حكايته عن المبرِّد؛ لغاية بُرودته.

وجوَّز صاحب «التقريب» أن يكون المراد: إن نظنُّ إلا ظنًّا ضعيفاً، فهو مصدر مُبيِّن للنوع حُذفت صفته كما صرَّح به في «البحر»[٢] لا مؤكِّدٌ، وهذا يُوافق ما ذكره الإمام السكَّاكي في بحث أنَّ التنكير قد يكون للتحقير.

وتُعقِّب بأن قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ يأباه، فإن مقابل الاستيقان مطلق الظنّ لا الضعيفُ منه، وقد صرَّح غيرُ واحد بأن هذه الجملة كالتأكيد لما قبلها، والمراد بها استمرارُ النفي وتأكيده، قيل: والمعنى: وما نحن بمستيقنين إمكانَ الساعة، أي: لا نتيقَّن إمكانها أصلاً فضلاً عن تحقُّق وقوعها المدلول عليه بقوله تعالى: (إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا) فقولهم ذلك ردٌّ لهذا، ولعل المُثبتين لأنفسهم الظنَّ من غير إيقانٍ بأمر الساعة غيرُ القائلين: إن هي إلا حياتنا الدنيا، فإنَّ ذلك ظاهرٌ في أنهم مُنكرون للبعث جازمون بنفي الساعة، فيكون الكَفرة صنفين: صنفٌ جازمون بنفيها كأئمتهم، وصنفٌ متردِّدون متحيِّرون فيها، فإذا سمعوا ما يُؤثر عن آبائهم أنكروها، وإذا سمعوا الآياتِ المتلوَّة تقهقر إنكارهم فتردَّدوا.

---

(١) الكتاب ١/ ١٤٧، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٥٥.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٥١.

ويحتمل اتّحاد قائل ذاك وقائل هذا، إلا أنَّ كلَّ قول في وقت وحال، فهو مضطربٌ مختلف الحالات، تارة يجزم بالنفي فيقول: إن هي إلا حياتنا الدنيا، وأُخرى يظن فيقول: إن نظنُّ إلا ظنًّا.

وقيل: الجزم هناك بنفي وقوعها، والظنُّ من غير إيقان هنا بمجرَّد إمكانها، فهم متردِّدون بإمكانها الذاتي جازمون بعدم وقوعها بالفعل، فتأمَّل.

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي: ظهر لهم حينئذ ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: قبائح أعمالهم، أي: عقوباتها، فإنَّ العقوبة تسوء صاحبها وتقبحُ عنده. أو: سيئات أعمالهم، أي: أعمالهم السيئات، على أن تكون الإضافة من إضافة الصفة إلى الموصوف، والكلام على تقدير مضاف، أي: ظهر لهم جزاءُ ذلك، أو أن يراد بالسيئات جزاؤها، من باب إطلاق السبب على المسبَّب.

وقيل: المراد: ظهر لهم الجهات السيئة الغير الحسنة عقلًا لأعمالهم، أي: جهات قبحها العقلي التي خَفِيَتْ عليهم في الدنيا بتزيين الشيطان؛ وهو قولٌ بالحُسْنِ والقُبْحِ العقليين في الأفعال.

و«ما» موصولة، وجوِّز أن تكون مصدرية، فلا تغفل.

﴿وَحَاقَ﴾ أي: حلَّ ﴿بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾ من الجزاء والعقاب.

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ نترككم في العذاب، من باب إطلاق السبب على المسبَّب، لأن من نسي شيئًا ترَكه، أو: نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المُبالَى به، على أن ثَمَّ استعارةً تمثيليةً. وجُوِّز أن يكون استعارة مَكنية في ضمير الخطاب.

﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: تركتم عُدَّته(١)، وهي التقوى والإيمان به، أو: كما لم تبالوا أنتم بلقائه، ولم تخطروه ببال، كالشيء الذي يطرح نسيًا منسيًّا. وجُوِّز أن يكون التعبير بنسيانه لأنَّ عِلْمَه مركوزٌ في فِطْرتهم، أو لتمكُّنهم منه بظهور دلائله، ففي النسيان الأول مُشاكلة.

وإضافة «لقاء» إلى «يوم» من إضافة المصدر إلى ظرفه، فهي على معنى «في»،

---

(١) بضمٍّ فتشديد: ما يُعدُّ له مما لا بدَّ منه كزاد المسافر وراحلته، وعدة الآخرة التقوى وماضاهاها كما قال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]. حاشية الشهاب ٨/ ٢٤.

والمفعول مقدَّر، أي: لقاءكم اللهَ تعالى وجزاءه سبحانه في يومكم هذا. وقال العلامة التفتازاني[(١)]: «لقاء يومكم» كـ«مكر الليل» من باب المجاز الحكمي، فلذا أجري المضاف إليه مجرى المفعول به، وإنما لم يجعل من إضافة المصدر إلى المفعول به حقيقةً لأن التوبيخ ليس على نسيان لقاء اليوم نفسه، بل نسيان ما فيه من الجزاء.

وقال بعض الأجلة[(٢)]: لا يخفى أن لقاءَ اليوم يجوز أن يكون كنايةً عن لقاء جميع ما فيه، وهو أنسبُ بالمقام لأن السياقَ لإنكار البعث.

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ما لأحد منكم ناصرٌ واحد يُخلِّصكم منها.

﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ بسبب أنكم ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: مهزوءًا بها، ولم ترفعوا لها رأسًا ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فحسبتم أنْ لا حياةَ سواها.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: النار. وقرأ الحسن وابن وثاب وحمزة والكسائي: «لا يَخْرُجون» مبنيًّا للفاعل[(٣)]، والالتفات إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب استهانةً بهم، أو بنقلهم من مقام الخطاب[(٤)] إلى غيابة النار. وجُوِّز أن يكون هذا ابتداءَ كلام، فلا التفات.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: يُطلب منهم أن يُعْتِبوا ربَّهم سبحانه، أي: يُزيلوا عتبه جلَّ وعلا، وهو كنايةٌ عن إرضائه تعالى، أي: لا يُطلب منهم إرضاؤه عز وجل لفوات أوانه. وقد تقدَّم في «الروم» و«السجدة» أوجهٌ أُخر في ذلك، فتذكَّر.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ تفريع على ما احتوتْ عليه السورة الكريمة، وقد احتوت على آلاء الله تعالى وإفضاله عز وجل، واشتملَتْ على الدلائل الآفاقية والأنفسية، وانطوتْ على البراهين الساطعة والنصوص اللامعة في المبدأ والمَعاد، واللام للاختصاص، وتقديم الخبر لتأكيده، وتعريفُ «الحمد»

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٨/ ٢٤.
(٢) هو الشهاب الخفاجي في حاشيته على تفسير البيضاوي ٨/ ٢٤.
(٣) قراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٧٥، والنشر ٢/ ٢٦٧، وهي قراءة خلف أيضًا.
(٤) في الأصل و(م): الخطابة، والمثبت من تفسير أبي السعود ٨/ ٧٦، والكلام منه.

للاستغراق أو الجنس. والجملة إخبار عن استحقاقه تعالى لِمَا تدلُّ عليه، وجُوِّز أن يُرادَ الإنشاء، وتمام الكلام قد تقدَّم في «الفاتحة».

وفي التفريع المذكور على ما قال بعض الأجِلَّة[1] إشارةٌ إلى أن كفرهم لا يُؤثِّر شيئًا في ربوبيته تعالى، ولا يسدُّ طريق إحسانه ورحمته عز وجل:

ومَن يَسُدُّ طريقَ العارض الهَطِلِ[2]

وإنما هم ظلموا أنفسهم.

وإجراء ما أُجري من الصفات الدالة على إنعامه تعالى عليه عز وجل كالدليل على استحقاقه تعالى الحمدَ واختصاصه به جل وعلا.

وقوله تعالى: «رب العالمين» بدلٌ مما قبلُ؛ وفي تكرير لفظ الربّ تأكيدٌ وإيذان بأنَّ ربوبيته تعالى لكلٍّ بطريق الأصالة.

وقرأ ابن مُحيصن برفعه على المدح بإضمار هو[3].

﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ فيه من الاختصاص ما في «لله الحمد». والكبرياءُ قال ابن الأثير: العَظَمة والمُلك[4]. وقال الراغب[5]: الترفُّع عن الانقياد. وقيل: هي عبارةٌ عن كمال الذات وكمال الوجود.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ في موضع الحال، أو متعلِّق بـ «الكبرياء»، والتقييد بذلك لظهور آثار الكبرياء وأحكامها فيه، والإظهار في مقام الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء، وفي الحديث القدسي: «الكبرياء رِدائي والعظمةُ إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار» أخرجه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه وابن أبي شيبة والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي هريرة[6]، وهو

(١) هو الشهاب في حاشيته ٨/ ٢٤.
(٢) هذا عجز بيت للمتنبي، وصدره: وما ثناك كلام الناس عن كرم. ديوان المتنبي ٣/ ٢١١.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٩٠، وتفسير القرطبي ١٩/ ١٧٤.
(٤) النهاية (كبر).
(٥) مفردات ألفاظ القرآن (كبر).
(٦) مسند أحمد (٧٣٨٢)، وصحيح مسلم (٢٦٢٠) ـ ولفظه: «العز إزاره والكبرياء رداؤه، فمن =

ظاهرٌ في عدم اتِّحاد الكبرياء والعظمة فلا تغفل. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ في كل ما قضى وقدَّر.

وفي هذه الجمل إرشادٌ ـ على ما قيل ـ إلى أوامرَ جليلةٍ، كأنه قيل: «له الحمد» فاحمدوه تعالى، «وله الكبرياء» فكبِّروه سبحانه، «وهو العزيز الحكيم» فأطيعوه عز وجل. وجعلها بعضُهم مجازًا أو كنايةً عن الأوامر المذكورة، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

هذا، ولم أظفر من باب الإشارة بما يتعلَّق بشيء من آيات هذه السورة الكريمة يفي بمؤنة نقله غير ما يتعلَّق بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ مِن جَعْلِه إشارةً إلى وحدة الوجود، وقد مرَّ ما يُغني عن نقله، والله عز وجل ولي التوفيق.

= ينازعني عذبته» ـ وسنن أبي داود (٤٠٩٠)، وسنن ابن ماجه (٤١٧٤)، ومصنف ابن أبي شيبة ٩/ ٨٩، والأسماء والصفات (٢٧٩).